مايلز كوبلند

ترجمة

ابراهيم جزيني

بيروت – مايو – ١٩٧٠

لعبـــة الأمم
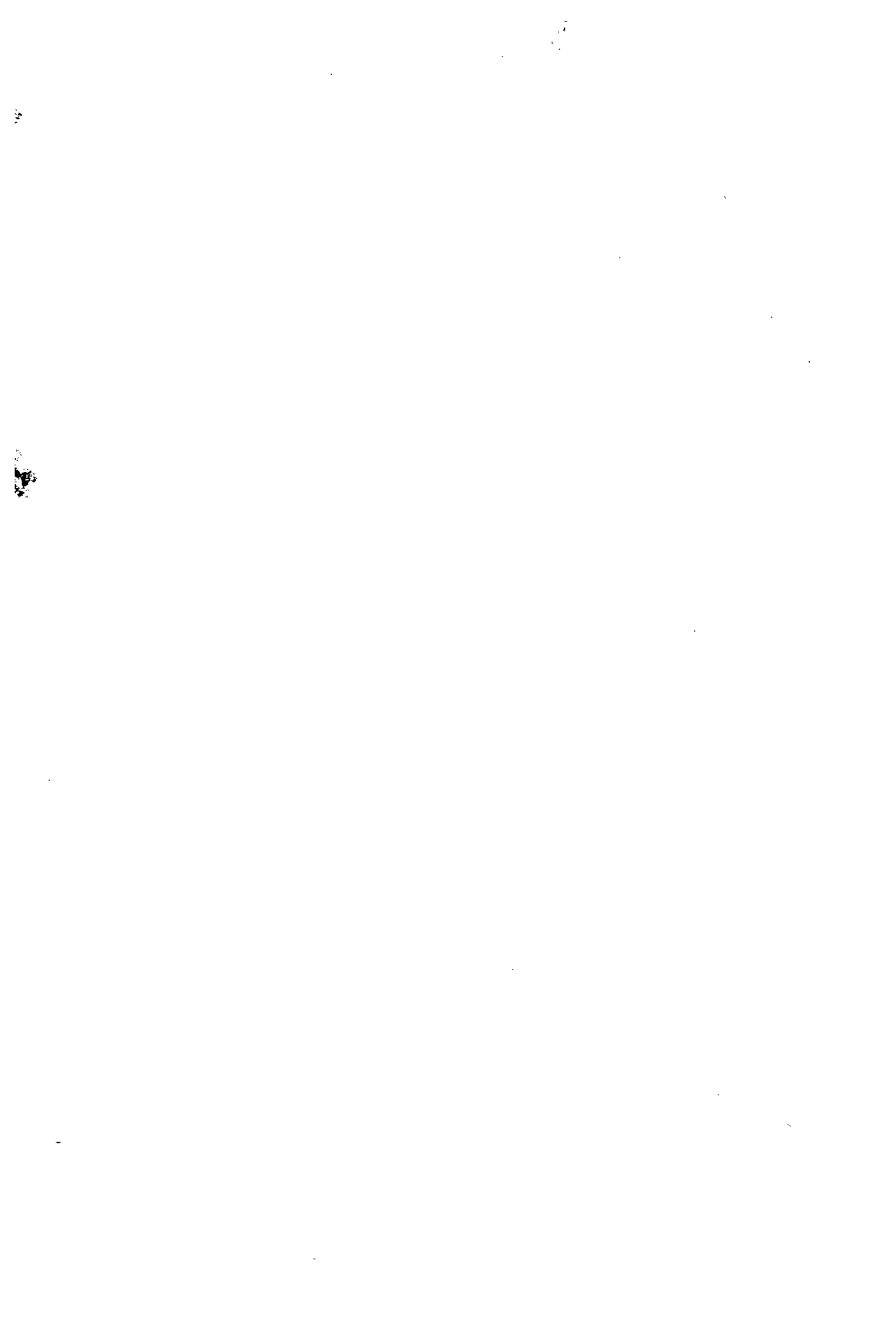
لعبة الامم

لعبة غريبة تختلف عن غيرها من الالعاب المعروفة ــ كالبوكر، والحرب، والتجارة ــ في مجالات عديدة . اولا، ان لكل لاعب اهدافه الخاصة والتي لا تتفق واهداف الآخرين .. وتشكل ربحا لا يجنيه الا هو نفسه، ثانيا، ان هذا اللاعب مجبر بطبيعة محيطه على التحرك في اللعبة التي لا شأن لها، احيانا، مع الربح وكثيرا ما تبدل الكسب المنتظر وتحوله الى خسائر فادحة، ثالثا : ليس في لعبة الامم من رابح واحد بل الخسارة هي المسيطرة. ومهما مني اللاعب نفسه بارباح طائلة فان خسارته قد تتغلب في النهاية .

ان هدف اللاعبين العام في « لعبة الامم » هو المحافظة على استمرار اللعبة .. وتوقفها يعني الحرب المحتم .

من محاضرة

لزكريا محي الدين

نائب رئيس الجمهورية العربية المتحدة سابقا
الى طلبة الكلية الحربية المصرية في أيار ١٩٦٢

الاحداث حسب تعاقبها الخاص

اود ان انبه القارىء الذي سـ .رك بعض الفوضى فيتوزيع الفصول وورود مقاطع لا تمت احـ.اثها الى المقاطع التي تليهـا بصلة .. فمرد ذلك هو انني راعيت ترتيب ذكر الاحداث كمـا حدثت في الشرق الاوسط وجئت بهذا السرد السريع اقدم لـه ما يمحو من مخيلته كل اثر للفوضى والبلبلة .

في ٢١ شباط ١٩٤٧ : بعثت السفارة الانكليزيةفيواشنطن بمذكرة حول اليونان وتركيا الى وزارة الخارجية واتت فينهاية المذكرة على « السلام البريطاني في الشرق الاوسط » .

في ١٢ آذار ١٩٤٧ : اعلان « مبدأ ترومان » .

في ٥ حزيران ١٩٤٧ : احلان خطة مارشال .

في تموز ١٩٤٧ : الاحداث السورية (وسنتحدث عنها في الفصل الثاني من هذا الكتاب .

في ١٤أيار ١٩٤٨ : ولادة اسرائيل وبداية اول حرب اسرائيلي — عربي .

في ٣٠ آذار ١٩٤٩ : انقلاب حسني الزعيم في سوريا .

في كانون الثاني ١٩٥٢ : حريق القاهرة ـ السبت الاسود ـ كرميت روزفلت يسافر الى القاهرة ليعد « ثورة السلام » تحت حكم الملك فاروق .

في آذار ١٩٥٢ : كرميت روزفلت يقابل الضباط الاحرار .

في تموز ١٩٥٢ : انقلاب عبدالناصر في مصر .

في ٥ آذار ١٩٥٣ : اجتماع بين ايدن ودالس وايزنهاور - لاعداد خطة موحدة للدفاع عن الشرق الاوسط .

في أيار ١٩٥٣ : دالس يجتمع الى عبدالناصر .

في آب ١٩٥٣: ازاحة مصدق في ايران .

في شباط ١٩٥٤ : عبدالناصر يقيل محمد نجيب ويتسلم مهام الحكم ـ وفي نفس اليوم ينحى ، صدفة ، الرئيس السوري اديب الشيشكلي .

في نيسان ١٩٥٤ : تركيا والباكستان توقعان اتفاقا يؤدي الى انشاء « حلف بغداد » .

في تشرين الاول ١٩٥٤ : وقع المصريون والانكليز اتفاقا يقضي باخلاء قاعدة السويس .

في تشرين الثاني ١٩٥٤ : الكولونيل افلاند وجيرهارت يقومان بزيارة الى الرئيس عبدالناصر لمناقشة خطة حماية مدروسة.

في كانون الثاني ١٩٥٥ : اعلان حلف بغداد رسميا . والسفير بيرود يتسلم منصب السفير كافاري في القاهرة .

في شباط ١٩٥٥ : الرئيس عبدالناصر يستقبل على حدة كلا من : نهرو وتيتو وايدن .. ولكن حدوث غارة فوق غزة بددت افكار ناصر المعتدلة حول المسائل الاسرائيلية .

في نيسان ١٩٥٥ : عبدالناصر يحرز نجاحا باهرا في مؤتمر الدول الافرو ـ اسيوية في باندونغ .

في تموز ١٩٥٥ : شبيلوف يزور القاهرة ليقدم السلاح الروسي لعبد الناصر .

في ايلول ١٩٥٥ : ناصر يوقع صفقة السلاح السوفياتي ويلي ذلك زيارة فاشلة لفوستر دالس الى القاهرة .

في آذار ١٩٥٦ : اضطرابات في الاردن ، العناصر المؤيدة للناصرية تجبر الملك حسين على تسريح الجنرال كلوب باشا .

في تموز ١٩٥٦ : دالس يعلن عن مسودة مشروع اميركي مالي لبناء سد اسوان العالي .عبدالناصر يعلن تأميم قناة السويس.

في تشرين الاول ١٩٥٦ : انكلترا وفرنسا واسرائيل تهاجم القاهرة ـ « قضية السويس » .

في تشرين الثاني ١٩٥٦ : السوريون يعلنون عن مؤامرة تدبرها المخابرات المركزية الاميركية لقلب نظام الحكم في سوريا .

في كانون الثاني ١٩٥٧ :الاعلان عن مبدأ ايزنهاور .

في نيسان ١٩٥٧ : اكتشاف وفشل انقلاب في الاردن مؤيد لعبدالناصر .

في شباط ١٩٥٨ : اتحاد بين سوريا ومصر ـ ولادة الجمهورية العربية المتحدة .

في أيار ١٩٥٨ : بدء الازمة اللبنانية .

في حزيران ١٩٥٨ : فشل انقلاب ناصري آخر في الاردن.

في تموز ١٩٥٨ : اطاحة وقتل العائلة المالكة في العراق . مقتل نوري السعيد واعضاء آخرين من حكومته. انقلاب عبدالكريم قاسم . القوات البحرية الاميركية تنزل في لبنان والقوات الانكليزية تنزل في الاردن لتفادي الانقلابات في تلك المناطق .

في آذار ١٩٥٩ : فشل انقلاب ناصري حاول الاطاحة بحكم عبدالكريم قاسم في العراق .

في ايلول ١٩٦١ : سوريا تنفصل عن الجمهورية العربيــة المتحــدة .

في ايلول ١٩٦٢ : انقلاب في اليمن وتأليف حكومة جمهورية تدعمها مصر بينما هبت المملكة العربية السعودية تساعدالملكيين .

في شباط ١٩٦٣ : سقوط حكم قاسم في العراق .

في تشرين اول ١٩٦٥ الى تشرين اول ١٩٦٦ : لمع نجــم زكريا محي‌الدين في القاهرة وهذا ما عرف في اوساط المراقبــين السياسيين « بسنة زكريا » .

في حزيران ١٩٦٧ : حرب الايام الستة بين العرب‌واسرائيل .

ملحوظة

هناك حوادث اخرى حذفت بالرغم من اهميتها التاريخية، انما نوهت عنها واشرت الى بعضها في عدة فصول . السفراء الاميركيون الذين عملوا في القاهرة اثناء فترة وضع هذا الكتاب.

جيفرسون كافاري (حتى كانون الثاني ١٩٥٥) ، هنري بيرود (حتى ايلول ١٩٥٦) ، ريموند هير (حتى كانون الثاني ١٩٦٠) ، فريدريك رينهارت (حتى نيسان ١٩٦١) ، جون باور (حتى تموز ١٩٦٤) ، لوشيوس باتل (حتى أيار ١٩٦٧)، واخيرا ريتشارد نوتل الذي عمل اياما قليلا في ايار وغادرالقاهرة بعد ان قطعت الجمهورية العربية المتحدة علاقاتها الدبلوماسية مع الولايات المتحدة اثناء حرب الايام الستة بين العرب واسرائيل.

مقدمة المؤلف

ماهي الاسباب التي حملت كلا من البريطانيين والمصريين حتى ينقضوا الاتفاقيات المتبادلة فيما بينهم مما ادى الى نقاش عام ١٩٥٤؟ ماذا نتج عن سقوط مصدق في ايران ؟ ما الذي جعل الناصريين يترأسوا الحرب الاهلية في لبنان سنة ١٩٥٨ وعلى مرأى من البحريين الاميركيين ؟ لماذا تباطأ ناصر في الحرب مع اسرائيل في الوقت الذي كان الخطر يمنيه بالنصر مع العلم انه استنشار قواده في ايار سنة ١٩٦٧ وكان مهيئا لها ؟ ان المؤرخين يصرفون النظر عن هذه الاسرار وغيرها الا في الحالات النادرة ، لانهم يرفضون العبارة القائلة : ((القصة تولدالقصة)) او ((الحدث يولد الحدث)). ويتريث الدبلوماسيون الذين كتبوا سيرة الاحداث احيانا لاعتبارات سرية واحيانا اخرى لان الافصاح عن احداث بكاملها يعتبر مضرا بالشعوب ، وعندما كنت اعد هذا الكتاب اطلعت بعض الدبلوماسيين على مسودته فانحى علي باللائمة لاني ((كشفت عن اشياء كان الاجدر ان تنسى)) وحفاظا على سمعة وطني وسمعة الجهازالذي اعمل فيه .. ولكني عارضته كليا ورفضت الاخذ بآرائه .

أولا ، لاني اشك في ان المواطنين الاذكياء قد يأخذون بوجهة

نظر قادة دولتنا وخاصة ما علموه ، مثلا ،من كتاب روبرت كندي حول الازمة الكوبية في عام ١٩٦٢ . كان كندي يودنا ان نصدق ان قرارات حكومتنا في هذه الحالة صيغت بواسطة رجالنا الاذكياء وان هؤلاء يعملون ويصارعون من اجل المستقبل والحفاظ على الجنس البشري ، يجلسون ساعات طوال في قاعة فسيحة في البيت الابيض يفلسفون ميراثنا ومثلنا العليا ، فان هم استطاعوا التأثير على مجموعة وجعلها تسير في ركابهم ، لفعلوا ، الا ان هناك مجموعات عديدة تفلت من ايديهم .

وهنا يحدث تضارب في الآراء ينجم عنه الشقاق في المجتمع سيؤدي الى تفكك في الاهداف والمبادىء التي يعمل من اجلها كل مواطن !

واحيانا تكون النظريتان على طرفي نقيض .. انما يستطيع الرئيس احداث تغيير ، احيانا ، في الجهة الاليفة من القضية ... وهذا يبدل نظرة اساسية في المسائل كلها وخاصة من حيث جذرية الموضوع وعمق اهدافه .

ولكن ماذا يحدث عندما تكون المسألة مسألة حياة وطنية؟ وهنا يدخل دور الدبلوماسية .. فعندما يفخر مواطنونا في الجبهة القوية من قوة الاخلاق التي تقدمها امتنا ، عندئذ فقط يمكنهم الخلود الى النوم والراحة واثقين من ان خلف هذه الجبهة اناس يعملون فعليا وقادرين على دحر السوفيات والرد على الخيانة بخيانة مثلها . اننا نعمل مؤمنين بالشرف وهدفنا الاعلى ما قاله بنجامين فرانكلين « انها احسن سياسة » . والسياسة ، منطقيا ، هي تقديم للاحداث وليست انتهاكا لحرمة القانون .

لم يكن للسفارات الاميركية والبريطانية اي مجال للتعاون مع الاحزاب الشيوعية العربية بعد ان انتهى شهر العسل الطويل بين السوفيات وبين الاستعمار البريطاني والامبريالية الاميركية.

لذلك لجأت السفارات البريطانية والامريكية في عالم العرب الى تشكيل طوابير يسارية عربية جديدة ــ المفروض فيها ان لا تكون من اولاد موسكو في الاحزاب الشيوعية العربية ــ بل تكون من نوع يساري لا يخضع لسلطة السوفيات في اجهزة الكومنفورم والمخابرات السوفياتية .

واشترك اليهود المواطنون في البلاد العربية مع السوفيات اول الامر ومع السفارات البريطانية والامريكية في اختيار العناصر اليسارية العربية التي فيها مادة تقدمية تصلح لمحاربة الرجعية العربية .

الم يكن منطق السوفيات واليهود في عام النكبة الفلسطينية بان المعارضين للتقدمية الاسرائيلية هم مع العناصر الرجعية العربية البغضة ؟

هذه العناصر الرجعية العربية كان من المفروض انها محسوبة على الاستعمار البريطاني والامبريالية الاميركية .

والخلاف فقط بين السوفيات وبين البريطانيين والاميركان كان على اختيار الخيول العربية التقدمية الصالحة للاطاحة بالعناصر الرجعية العربية .

وحرص ستالين على المراهنة على الخيول الشيوعية العربية ــ وهي خيول هزيلة ولا تجيد حتى معرفة اللغة العربية المعقولة ــ لانها كانت من الاقليات ومن انصاف الاميين .

بينما نشطت السفارات البريطانية والامريكية لاختيار خيول عربية اخرى من نموذج الذين اسسوا حزب البعث في دمشق ..

او الذين اسسوا الخلايا اليسارية غير الشيوعية في مصر والعراق والسودان .

وكتاب « لعبة الامم » محصورفي النشاط الامريكي ومراهنته على هذه الخيول التقدمية العربية .. اما النشاط البريطاني فلا زال في الكتمان ـ وبانتظار ان تطرد وزارة الخارجية البريطانية موظفا او اكثر من خدمتها ـ ليلتحق باحدى مكاتب العلاقات العامة ويحصل على عقد من اية حكومة عربية لخدمتها في صفة العلاقات العامة .

ومع ان في استطاعة المخابرات البريطانية ان تختار آنئذ اجود الخيول العربية العسكرية لاحداث انقلابات انكشارية لان معظم الجيوش العربيةكانت آنئذ من تربية البريطانيين .. الا ان العقلانية البريطانية اختارت ان لا تراهن على الانكشاريات العسكرية العربية في عملية التغيير لاحوال وقيادات واقدار الامة العربية .

فالرهان على الانقلابات « الثورية » كان من اختصاص الاميركيين والسوفيات ـ السوفيات يراهنون على « الثورة » بأسلوب لينين والاستعانة بالاحزاب الشيوعية المحلية ..والتسرب الى نقابات العمال والطلبة والصحف .

اما الامريكان فقد كانوا اقل صبرا وتؤدة من السوفيات . فقد اختار الامريكان الطريق « الثوري » واستعمال الانكشارية العسكرية .. (وقد حذا السوفيات حذو الاميركان بعد موت ستالين .. انما الفضل في الانقلابات العسكرية الثورية هو للعم سام . سواء كان ذلك للقوالب الثورية اليمينية التي افتعلها الاميركان في اميركا اللاتينية . او القوالب اليسارية التيافتعلوها وساهموا بها او شجعوها بالمال وغيره في بعض العواصم العربية.

فصناعة السياسة والمواقف الامريكية هي من نتاج « القيادة الجماعية ، تماما مثل صناعة السياسة السوفياتية » .

فوزارة الخارجية لا تصنع السياسة الاميركية و لايمكن ان تصفها بمفردها..

فهناك مركز القوى فيالبيت الابيض .

وهناك مركز القوى في مكتب المخابرات الامريكية .

وهناك مركز القوى في البنتاغون والقيادة العسكرية .

وهنك مركز القوى في الكنغرس الاميركي .

وهناك مركز القوى في قوة الصحافةالامريكية او ما يعرف باسم الرأي العام الاميركي .

ومن كل مراكز القوى هذه تتألف القيـادة الجماعية وهي ما يعرف باسم المجلس اقومي للامن الامريكـي . ومنه وحـده يصـدر البت والقرار في صلب المشـاكـل والمواقف والعمليات الامريكية ــ لا من وزارة الخارجية او سفاراتها ، فهي مكـاتب تنفيذية محدودة جدا الا في الاعمال الثانوية .

ويظهر ايضا في « لعبة الامم » ان مراكز القوى الامريكيـة الاخرى في القيادة الجماعية لمجلس الامن القومي في واشنطن وجدت بان ارتباط ثورة ناصر بالسوفيات هو حقيقة ظهرت جلية بعـد حرب العدوان الثلاثي على قنال السويس ورغم مساهمتنا فـي انقاذ النظام الناصري .

مايلز كوبلند

مقدمة المترجم

قد يكون الجسر في اي مكان من القسم الذي احتلته المانيا النازية في اوروبا ، ولكنه في هذه الحادثة كان يمر فوق جسر ضيق يصل بين (براغ) و (بيلسين) اكبر مركزين للمواصلات في تشيكوسلوفاكيا .

وفجأة ارتفع صوت الصفير من بعيد ..

كان هذا ايذانا بقرب وصول القطار ، فاستعد الحراس الالماني لاستقباله ، وتحركوا على طرفي الجسر ليأخذ كل واحد منهم مكانه .

عاد صوت الصفير ثانية يرج المنطقة الهادئة .. واخذ يزداد ارتفاعا مع هدوء الليل وانقطاع الحركة من حول الجسر ، لقد سمع الحراس صوت هذا الصفير العالي مع كون القطار كان لا يزال اميالا بعيدا عنهم ، ولكنهم في الوقت نفسه لم يسمعوا صوت الخطوات القريبة الرتيبة ، ولا شاهدوا الاشباح التي كانت تتحرك غير بعيد عنهم .

كان الحراس في هذه اللحظات قد وقفوا في اماكنهم ، كما تعودوا عند مرور كل قطار بهم ... فوق الجسر ..

وفي اللحظات التالية .. وعلى حين فجأة .. اخذت طعنات

الخناجر تنهال عليهم من خلفهم وامامهم ببراعة وقوة . دون ان يفطنوا للخطر ، او يشعروا بأنــه قريب .. حبل امتد الى عنق كل واحد منهم ... ووضربــة على الورك جعلتهــم يرتدون الى الخلف ، ثم طعنة من مدية حادة اصابت القلب فمزقته . فهوى الحارس ارضا دون ان ينطق بكلمة واحدة ..

واخذ القطار يقترب من الجسر مسرعا .. وارتد القتلــة عن ضحاياهم .. ومضوا يلتقون بالاشباح الاخــرى التي ظهرت في الظلام .. صوت القطار للمرة الثانية ..

كان صوت الصفارة هذه اللحظة يصم الآذان ، فاسرع الاشباح يغادرون الجسر لا يلوون على شيء ، ولا ينتظرون ما سوف يكون .. واقترب القطار .. واشتد هديره وصوت الآلة .. وبلغ الجسر .. واخذ يجري فوقه .

كان مليئا بالجنود الذين جيء بهم من الساحة الشرقيــة لتعزيز القوات الالمانية في ايطاليا .. وذلك في صيف سنة ١٩٤٣، بعد ان بدأ الحلفاء يقرعون ابواب اوروبا الخلفيــة ، ويقتحمون صقلية مقدمة للهجوم الكبير في شمالي فرنسا .. في داخل القطار كان الجنود يضحكون ويغنون ويتندرون ، وكان من حقهم ان يفعلوا هذا بعد ان اختارهم القدر لمغادرة روسيا وحربها التي لم ترحــم أحدا من الفاتحين ..

لم يكونوا يعرفون الى اي مكان يتوجهون ... ولكنهم ماداموا في طريقهم الى الغرب .. فلا عليهم في اي مكان نزلوا، ولا في اي جهة حاربوا .. ان اية ساحة من الساحات القتال كانت افضل من الساحة الروسية وارحم .

الفاجعــة :

وفجأة حدثت الفاجعة .. ووقــع الانفجار الهائل .. لمــا وصل القطار الى وسط الجسر شاهد سائقا القطار الالمانيان شعلة

من اللهب تظهر امامهم وتغطي طريقهم .. ثم ترتفع حتى تشمل الجسر كله .. وكان هذا آخر منظر شاهداه في الحياة .. فقد حدث الانفجار على الاثر ، وغمرتهم النار ، والتوى حديد الجسر من قوة المفرقعات ، فتمزق وهوى القطار الى الوادي العميق.. ارتفعت الاصوات والآهات والاستغاثات ولا من مغيث .. لقد هوى القطار الى عمق مئة قدم فوق الصخور الصلبة الحادة .. والقليلون الذين نجوا من هذه الكارثة اصبحوا غير ماكانوا .. فقد أكثرهم بعض اعضائه او اكثرها .. ومنهم من لواه الحديد فلم يعد انسانا .. وفي اللحظة التي وصل فيها خبر الفاجعة الى القيادة الالمانية في براغ .. تسلم ضابط رقيق ، طويل القامة ، يرتدي بزة عسكرية برتبة ماجور في الجيش ، تقريرا عن الحادثة ، وبعد ان القى نظره على الورقة السرية ، هز رأسه ، ووضعها في ملف كتب عليه (عملية جودكس رقم ١) .

كان التقرير من جنيف ومن شخص يدعى (جيرهاردفان اركل) وقد ختم تقريره بالجملة الآتية : (ونحن بانتظار تعليماتكم لعملية جودكس رقم ٢) .. واستلقى ارثر غولدبرغ) في مقعده ، واخذ يفكر في العملية الثانية ، واين يجب ان توجه الضربة القادمة ..

ارثر غولدبرغ :

ارثر غولدبرغ ، مندوب الولايات المتحدة لدى الامم المتحدة سابقا ، ولكنه لسنوات خلت وفي الحرب العالمية الثانية كان جاسوسا اميركيا ، يحمل رتبة ماجور في الصليب الاحمر الاميركي.

وغولدبرغ يهودي اميركي تخرج من كلية الحقوق ، وانضم الى المنظمات الاشتراكية في اميركا كمحام لها ، وظهرت كفاءته اثناء النكسة الاقتصادية التي تعرضت لها اميركا بعد الحرب العالمية الاولى .. وفي اثناء عمله كمحام للمنظمات الاشتراكية اتصل بكثير من زعماء الاشتراكية في اوروبا ، وتتابعت بينه وبينهم

الرسائل ، ولما زاروا اميركا دعي للاجتماع بهم ، وقد تم الاتفاق بينه وبينهم في اثناء هذه الزيارات على ان تظل الاتصالات قائمة بين الاشتراكية الاوروبية والاميركية ، وان تزداد هذه الاتصالات وثوقا مع الايام .

وكانت الاشتراكية في اوروبا اقدم منها في اميركا ، سبقتها بأكثر من نصف قرن ، كما كان رؤساؤها وزعماؤها يختلفون عن زملائهم الاميركيين في كونهم اكثر ثقافة وعلما ، واعظم مركزا اجتماعيا ، بينما كان الزعماء الاميركيون من العمال ذوي الثقافات المحدودة .. وكان الزعماء الاشتراكيون الاوروبيون ينتظرون اليوم الذي يتسلمون فيه الحكم في بلادهم ، فيسيطرون على كل وسائل الانتاج ، وينادون بالسلام وتحذير السلاح .. ولم يكن الاشتراكيون يؤيدون الشيوعية ولا كانوا من دعاتها ، بل كانوا على النقيض من ذلك يحاربون الفاشستية والنازية ، وكان الحمر والنازيون في الوقت نفسه يكرهون الاشتراكيين الذين كانوا ضد الديكتاتورية والحكم الفردي .. سواء كان من اليمين ام من غير اليمين من اصحاب المذاهب المتطرفة .

الجاسوسية الاميركية :

ولما نشبت الحرب العالمية الثانية لم يكن للولايات المتحدة ادارة للجاسوسية تستحق الذكر ، ولا كان لها دوائر تعرف مايجري خلف الستار في اوروبا وكان ما تحصل عليه من المعلومات السرية يأتيها من دوائر الاستخبارات الانكليزية .

واما غولدبرغ فكان يحصل على معلوماته السياسية ، من رسائل اصدقائه الاشتراكيين الاوروبيين ، ولما لم يستطع الافادة منها ، فقد كان يحتفظ بها لنفسه . وقبل ستة اشهر من فاجعة (بيرل هاربر) اتصل المستر (جورج يورن) وهو من المحامين المعروفين في شيكاغو ، بصديقه (غولدبرغ) وسأله ان يزوره ليقدمه الى صديق له يقوم بزيارة لشيكاغو في ذلك الوقت . تم الاجتماع

في مكتب المستر (بورن) وكان الزائر الكولونيل (وليام دونوفان) احد ابطال الحرب العالمية الاولى ، ورسول الرئيس روزفلت السري لدول اوروبا .. ولم يخف (غولدبرغ) اعجابه بالزائر ، ودهش لمعرفته الواسعة بالشؤون الدولية والحركات الخفية ، كما اعجب بنشاطه وجرأته .. قال الكولونيل يسأله : سمعت ان لك علاقات وثيقة في اوروبا ..؟

هز (غولدبرغ) رأسه بالايجاب ..

فقال الكولونيل :

ـ هل يحارب اصحابك هتلر ؟

ـ انهم يحاربونه فعلا ..

ـ لم اسمع بهذا الخبر ..

فقال غولدبرغ : ولكن هتلر سمع به .. ان اصدقائي يحاربون على طريقتهم .. وبعد ان اخذ الثلاثة بأطراف الحديث قال الكولونيل :

ـ سأذهب اليوم الى واشنطن بعد ان قمت بزيارة اهم المدن الاميركية. وانتهى الاجتماع.. ولم يفصح الكولونيل عن غرضه فيه ، ولكنه كان في سبيله لتأسيس اول دائرة للجاسوسية العالمية في اميركا ، وكان يحاول الاتصال بكل من يستطيع الافادة منه في عمله الجديد .. الذي لم يظهر فعلا للوجود الا في سنة ١٩٤٢ حين اطلق عليه اسم مكتب (الخدمات الستراتيجية)وفي شهر كانون الاول من سنة ١٩٤١ هاجم اليابانيون (بيرل هاربر) المرفأ العسكري الاميركي في الباسفيك ، فغادر غولدبرغ عمله في المحاماة ليلتحق بالجيش برتبة كابتن ، وكان الجيش بحاجة الى بعض المحامين البارعين ، ولكن غولدبرغ كان يريد عملا في الحرب لا خلف المكاتب، فعارضه رؤساؤه حتى اتصل به صديقه المحامي بودون وسأله الاسراع لمقابلته في واشنطن لامر مهم جدا .. ولما اجتمع غولدبرغ

بصديقه صارحه هذا بأن الولايات المتحدة بحاجة لخدماته في المجال الدولي ، وانه يستطيع تقديم هذه الخدمات اذا انضم الى الدائرة الستراتيجية الجديدة لمعرفته بأوروبا واقطابها من الاشتراكيين .. قبل غولدبرغ العرض ، وانتقل الى مركزه الجديد في ضواحي العاصمة الاميركية وبدأ اتصالاته باصحابه القدامى من السياسيين الاشتراكيين الاوروبيين .. كان الجماعة ممن التحقوا في هذه الدائرة التي شكلت برئاسة الكولونيل (دوفوفان) مجموعة غريبة من الاشخاص الذين راحوا يترسمون طريقة (شارلوك هولمز) في تقصي الاخبار والبحث عن الاسرار .. بينهم العالم والمالي وسمسار البورصة والفنان والرياضي والموسيقي واستاذ الجامعة حتى وبعض الشيوعيين ايضا .. وكان الكولونيل دوفونان هو الجاسوس المحترف الرسمي بينهم .. وكان قبل اختيار الرئيس روزفلت له لهذه الوظيفة الخطيرة محاميا مشهورا في حين الاعمال في نيويورك .. ولما تسلم المنصب استدعى (الن دالس) لمعاونته وكان هذا يتعاون معه في مكتب المحاماة، ثم خلفه بعد ذلك واصبح رئيسا عاما لدوائر المخابرات الاميركية في الوقت الذي كان فيه شقيقه فوستر دالس وزيرا للخارجية .. وقد بدأ (الن دالس) عمله في سويسرا وفي منزل ريفي خارج جنيف، حيث اختار جواسيسه من البلاد التي احتلتها المانيا حوله، والتي كانت لاتزال بعيدة عن الحرب ، او وقفت موقف الحياد فيها .. وكان اول ما فعله (غولدبرغ) ان قدم لرئيسه دونوفان تقريرا يشرح فيه كيف يمكن الافادة من الاشتراكيين الاوروبيين ليتعاونوا مع الحلفاء. وكيف انهم يكرهون الفاشية والنازية والشيوعية وهم كما هو معلوم يؤلفون الطبقة العاملة التي تعمل في المصانع والمعامل، وتحرك الجيش بوحداته ، وتشرف على خطوط المواصلات جميعها ، وتغذي الانتاج وتوزعه ، وكيف يستطيع المرء بواسطتها الحصول على مختلف الاخبار والاسرار كحركة القطارات ، ومقدار ما تنتجه المصانع والمعامل وكيف توزع الاسلحة والى اين ترسل واين

تحفظ .. واقتراح انشاء جهاز يتصل بالاشتراكيين ويعمل لكسب تأييدهم لقضايا الحلفاء وتعاونهم على اوسع نطاق .

الاتصالات :

.وافق (دونوفان) على المشروع ، وامر غولدبرغ بالاشراف عليه وتنفيذه فبدأ هذا اتصالاته وعاد الى ملفاته يبحث عن عناوين اصدقائه الاشتراكيين ، وكان هؤلاء الاساس الذي قامت عليه منظمة الجاسوسية الاميركية عند اتصالها بالعالم الخارجي .

اتصل غولدبرغ اول ما اتصل باصدقائه بواسطة منظمات الجاسوسية الاميركية في جنيف ولندن ، للتأكد من ان الاشخاص الذين يبحث عنهم لا يزالون على قيد الحياة ، وانهم احرار لم يقبض عليهم النازيون واين يمكن الاتصال بهم ، كما راح يصف كل واحد من معارفه ، ويعدد اشكاله حتى لا يخطىء الرسول فيتصل بشخص آخر مكانه. ثم وجد من الحكمة ان يسافر بنفسه الى اوروبا للاتصال بالزعماء الاشتراكيين شخصيا ..ووافق (دونوفان) على اقتراحه ونصحه بالقيام ببعض التمارين الرياضية حتى يكون في احسن حالة من الصحة لمواجهة المتاعب والمشاق التي يمكن ان يتعرض لها ، كما امره بالمران على اطلاق النار ، وتفجير القنابل .. في اثناء هذه التنظيمات كان هنالك سائق سيارة شخص نمسوي يزور قرية سويسرية على الحدود مرتين في الشهر الواحد وفي مواعيد منظمة فينزل في فندقها ، ويجتمع في غرفة منفردة من غرف الفندق مدى ساعات مع احد رجال الاستخبارات الاميركية التابع لغولدبرغ .

وكان هذا السائق الوسيط المختار بين كثير من العمال الاشتراكيين الذين يعملون في مصلحة النقل والمواصلات والمصانع.. وكان كثيرا ما يحمل الى الجاسوس الاميركي اخبارا هامة عن تنقلات الجنود الالمان ، ومراكز القيادة الالمانية العسكرية هنا وهنالك في اوروبا ، ومقدار الاضرار التي تعرضت لها المدن

والمصانع من جراء الغارات الجوية الحليفة .. ومراكز السلاح والمؤن وغير ذلك من الاخبار والانباء .. وكانت هذه المعلومات ترسل الى غولدبرغ في واشنطن فيوزعها بدوره على الدوائر صاحبة العلاقة ولكنه كان يحتفظ بنسخة من كل تقرير ليظل على معرفة بنشاط العملاء في الخارج .

رسالة من فلسطين :

وفي اوائل سنة ١٩٤٤ وصلت الى غولدبرغ رسالة من فلسطين يقول صاحبها فيها ان لديه اخبارا مهمة لا يمكنه نقلها الى اميركا بواسطة الانكليز مخافة أن يطلع بعض الموظفين العرب في دوائرهم عليها او يشتموا رائحتها .. وكان كاتب الرسالة روماني يهودي تمكن من الهرب والتجأ الى فلسطين وانضم الى جماعة المقاومة السرية فيها .. واذا فقد كان على غولدبرغ ان يقوم بهذه المهمة بنفسه ، وان يحصل على هذه الاخبار من مصادرها في فلسطين، ووافق (دونوفان) على سفره ، واعطيت له هويات مزورة ،فسافر الى شمالي افريقيا ومنها الى مصر ففلسطين .. نزل غولدبرغ القدس كأحد موظفي الصليب الاحمر الاميركي ، جاء لزيارة الارض المقدسة والاستجمام وقيد اسمه عند وصوله في فندق الملك جورج، ثم بدل ملابسه وحمل آلة التصوير ومضى يجوب المدينة وينتقل من حانة الى اخرى .. كان يقصد المقاهي الخاصة بالمال ، واثقا ان صديقه الذي كتب له سيلحق به عند رؤيته ، او ينذوه بمكانه، وكان من حسن حظه ان التصق به شخص عند دخوله المقهى الخامس وهمس يقول له : الحقني ..فلما غادر المجهول المقهى.. حدد (غولدبرغ) النظر فيه فعرفه ، ولحقه وكان يعرفه منذ سنة ١٩٣٨ ، حتى بلغ صديقه بابا فدخله ، وتبعه (غولدبرغ) ، ماكاد (غولدبرغ) يدخل الباب حتى احس بيدين تمسكان به وبصوت هامس يقول : ـ ما الذي تفعله هنا يا ارثر .. فقد كنت آخر من اتوقع مشاهدته هنا .. ولقد ادرك الروماني من النظرة

الزوار لصديقه (غولدبرغ) انه ينعم بمركز ممتاز في الجيش ولولا هذا لما استطاع الوصول الى فلسطين بمثل هذه السرعة ، ولكنه كان من حسن الذوق بحيث لم يسأله عن عمله ، واثقا ان له علاقة بالاستخبارات الاميركية ، ولهذا بدأ يقص عليه ما يعرفه من
الاخبار .. — لقد تمكن النازيون من انزال كمية حسنة من السلاح بواسطة الغواصات على سواحل البلاد العربية في البحر المتوسط ، كما اتوا بكمية كبيرة من الذهب ايضا لتوزيعها على بعض القبائل والعملاء الذين لا يعرفون غير الذهب .. « وقد تم كل هذا بمعرفة احد زعماء فلسطين وموافقته ، والغاية من جلب الاسلحة اثارة العرب على الانكليز في مصر وفلسطين وعلى الافرنسيين في سوريا ولبنان ، تماما كما فعل الحلفاء عندما ثاروا ودفعوا العرب ضد الاتراك .. بحيث يضطر الخلفاء لارسال بعض قواتهم من اوروبا وافريقيا لمواجهة هذا الخطر الجديد فيخف الضغط عن الالمان .
ومضى الروماني يقول : ولتعلم ايضا ان هنالك خطة لنسف قناة السويس واغلاقها في وجه السفن الحليفة والقناة كما تعلم انها ضرورية جدا للحلفاء فهي اقصر طرق للملاحة بينهم وبين قواتهم في الباسفيك واما طريقة النسف فسوف تتم بتدمير بعض السفن في القناة واغراقها ، وبنسف بعض الجسور وطبعا سيتمكن الحلفاء من اصلاح هذا الضرر ولكن بعد وقت طويل .. وفي هذا الوقت يكون الالمان قد ضربوا ضربتهم في فلسطين وسورية والعراق واثاروا شعوب هذه المنطقة على خصومهم .

ابراهيم جزيني

مركز لعبة السلاح التابع لواشنطن

الصفات اللازمة التي يجب توفرها لكي تكسب اللعبة هو ان تكون واحدا فيها

ترددت انباء في مطلعظهيرة يوم ما منعام ١٩٥٦ بان هناك جهاز ارسال كهربائي ، قد تم العثور عليه تحت ط'ولة مؤتمر في مكتب هام تابع لوزارة الخارجية .

اليوم هو الجمعة ، حيث نجد موظفي الحكومة متعطشين للانصراف مبكرا ، وخصوصا أن السماء كانت تنذر بسقوط الثلوج، الا أن الاوامر كانت قد صدرت بأن يظل صغار الموظفين في عملهم وفي مكاتبهم التي تضم معلومات بينما نجد رجال الامن «يكنسون» المكاتب بحثا عن المزيد من هذه الاجهزة .

لقد كان هذا هو سبب الفزع الاساسي . لقد كان هذا الجهاز في حجمه لا يزيد عن ضف حجم علبة كبريت كما انه لا يتطلب اسلاكا ما ويمكن ا نيلصق في لحظات تحت أي طبقة من جانب سيدة مأجورة ، أو عامل ضمن أحد دزينات الموظفين من الطبقات الاخرى والملقى على عاتقهم مهمة الاشراف أو ملاحظة الامن بصورة بسيطة .

ويشتغل مركز الالعاب (من الخامسة والنصف بعد الظهر حتى منتصف الليل)

ويعد للاجتماع حوالي الثامنة بعض المساعدين عندما يكون

ليبدأ أولى اجتماعاته بينما نجد بعض المشتركين في هذا الاجتماع في ملابس السهرة ـ يطلون من خلال نافذة في الطابق الثامن عشر على فوج من السيارات المتدفقة الى شارع كونكنيكت أفينيو ـ مندهشين بالكيفية التي سيتم بها اقامة حفلاتهم المقبلة في جورج تاون .

وقد اخذ الاشخاص الذي جاء وصولهم متأخرا والذي عليهم مهمة الاشراف على المجلس ، حتى منتصف الليل ـ في قلع معاطفهم ورفع أكمامهم استعدادا لمساء حافل .

استغرقت عملية البحث من جانب المجلس ساعة ـ ولم يتم العثور على شيء . وكما كان يسمح الوقت ـ كنا نمتع أنفسنا بفكرة ما سوف سوف يفعله مركز اجنبي للمخابرات بما يلتقطه من سماعة موضوعة تحت مائدة هذا المؤتمر وبطبيعة الحال كانت هذه الطاولة مغطاة بالاوراق ومحاطة بمجموعة من الاشخاص ذوي النظرة الخلودة وضيق واضطراب . والذين كانوا يتهامسون الواحد مع الآخر من مجموعات صغيرة وكانوا يصيحون في الاجتماع احيانا وتارة أخرى نجدهم في صمت تام بينما يذيع واحد منهم اخبارا مذهلة .

اما اجهزة الالتقاط في زوايا الحجرة ، والتي تبعد تماما عن طاولة الاجتماع ، كانت تدار بواسطة مذياع أو بأيدي الرجال ذوي الاكمام القصيرة لاقطين مكان الصوت حتى يمكنهم ان يتحاشوا وصول الضجيج الذي تحتاج الغرفة اليه .

اما امناء السر فكانوا مقبلين ومدبرين . ومن وقت لآخر كان أحد الرجال الموجودين حول الطاولة، يدعى الى احد التليفونات أو يترك مكانه ليحل محله شخص ما آخر الذي ينسل الى الكرسي الشاغر ليبدأ بنشاط في فصل الاوراق من حقيبته الخاصة

وكانت تجيء المحادثات الى جهاز الالتقاط متضمنة مقتطفات مثل هذه : هل راجع احد هذا الامر مع صبيان اولاد الكرملين ، أين الجحيم لنلقي فيه ديغول ؟ كان ينبغي ان يكون هناك منذ ساعة مضت ..

ولقد كان من الصعب على لاقطي الارسال أن يعرفوا أن تيتو كان مرتديا لباس رجال الدين وأن شعره محلوق على غرار البحارة .. ومن الممكن أن يكون ديغول على شاكلة بيتر سيلارس - وأن يكون أنتوني ايدن في شكل سيد في جرين ستريت وكوفراد اديناور في شكل فتاة حسناء بصورة ملفتة أما أولاد الكرملين فقد وصلوا اخيرا حاملين حقائب جلدية غالية الثمن وهم على وشك أن يسجلوا أنفسهم في فندق ستاتلر وذلك لحضور لعبة كرة القدم في نهاية الاسبوع (الويك اند) .

أما العملاء الاجانب فلا بد وأن يكونوا يسترقون السمع بتعهد لما يدور من حديث حول لعبة السلام .

«وفي مركز الالعاب» الصغير هذا مجموعة من خبراء العشاء المنتقين بدقة متناهية وهم على صلة واتفاق مع حكومة الولايات المتحدة الاميركية . يحاولون الاستفادة من التيارات الدولية والازمات وذلك للتنبؤ بما سينجم وتأثير هذا عليهم .

وبفضل ما ينقل لهم كل ساعة من وكالة المخابرات المركزية التابعة لوزارة الخارجية والبنتاغون والوكالات الحكومية الاميركية الاخرى ، وفرق تمثل الدول المختلفة في العالم استطاعوا أن يقيموا مواقفهم نسبيا وأن يصيغوا الحلول وأن يتصرفوا بشكل نظري بطبيعة الحال - وهو اجراء كان يتخذ شكل مذكرات يدون فيها رأي هذا اللاعب أو ذاك فيما سيفعله تيتو الحقيقي ، وديغول او ناصر تحت وطأة الظروف - او كما هو معتاد يفكرون في مجموعة بديلة كل واحد فيهم له أسبقية محتملة .

ولقد كان يغذي هذه المذكرات او الانطباعات سيل من المعلومات التي تأتي في شكل معلومات مختارة تم تحليلها أو من حقائب حيث نجد العامل الشخصي مسيطر أو تأتي من أمام اللاعبين الذي تم تدريبهم على معرفة الصفات المميزة لشخصية الزعماء العالميين .

كانت قواعد اللعبة بسيطة:

أولا تعتبر الاحكام الاخلاقية ذات قيمة عندما تكون متصلة فقط بالمستويات الاخلاقية المعترف بها والخاصة بالدول المختلفة **بما في ذلك الداخلة في اللعبة .**

ولم نستخدم المستويات الاخلاقية الخاصة بنا الا عندما كنا نتنبأ بالافعال وردود الافعال من جانب حكومتنا .

وكما قال رجل دين مشهور ذات مرة أن الشيء الحسن حسن كما ان الشيء الرديء رديء .

هذا الاسلوب في التفكير غير مسموح به في اللعبة (الميكاتيلية) . لقد قضينا الكثير من الوقت محاولين التعرف على الخلفية الاخلاقية لتصرفات زعيم قوي بصفتها معارضة لما يؤمن به السياسيين والزعماء الدينيين وما تردده الصحف في الامة ..

ثانيا : نحن نفترض ما لم يثبت عكس ذلك بأن الهدف الاساسي للزعيم القومي هو أن يظل متوليا السلطة ولكن اذا لم يستطع ، عليه ان يعتزل اذا ما تعرض لاقل قدر من الخسارة الشخصية (أو ما يراه خسارة) بالنسبة له .

غير أن هناك زعماء وطنيين كثيرين في أنحاء العالم . لا نبرر هذا الافتراض بالنسبة لهم فهم لا يتورعون التضحية بأرواحهم وحتى بسمعتهم في سبيل اهتمامهم وشغفهم الوطني (القومي).

ولكن اذا افترضنا ان هؤلاء الزعماء اقلية مستثناة ــ بدا تنبؤنا (تقديرنا) أفضل عندما سمحنا لانفسنا أن نعتنق رأيا

أكثر اشراقا فيما يتعلق بالزعامة الانسانية (البشرية) وما يتصل بهذه القاعدة .

ثالثا : نحن نفترض مالم يتضح عكس ذلك بأن على الزعيم الوطني أن يتصرف بما يتفق وأفضل المصالح لبلده وكما يراها . وأن يؤمن وباخلاص أنه صاحب قضية عادلة عندما يتولى شرح أعماله للعالم .

وقد يتذكر القراء . عندما اشتط أحد رجال الكونجرس الاميركي ليقول في خطبة وطنية متهما ديغول بانه عدو لاميركا . وهو كذلك عندما تمت اللعبة .

غير ان هذا الاتهام لم يجعل منه رجلا سيئا هزليا فليس في لعتنا رجال محتقرون جيدون أو رجال هزليون محتقرين سيئين .

ولكن تضم اللعبة مجموعة من اللاعبين كل واحد فيهم كان يحاول الفوز طبقا لما هو مرسوم بواسطة أضوائه الخاصة به .

هذه كل القواعد التي كنا بحاجة اليها .

يمنح اللاعب الحقائق المعروفة والخاصة بموقف معين ـ أي الحقائق المفروض أنها معروفة للحكومة التي يمثلها اللاعب ـ وعندئذ وعلى أساس من الفهم للتقديرات التي هي في متناول يده والقيود الموضوعة على تصرفه ، يقرر هو ما يستوجب عمله .

وقبل أن يؤدي بالفعل لعبته ، يخطو نحو معرفة دور الزعيم القومي الذي يؤديه ـ وعلى اساس معرفته بالاسلوب ونقاط ضعف الزعيم ، ويتخذ عمله ـ كما ذكرنا مسبقا ـ في شكل مذكرات متصلة باسلوب العمل ، والذي يغذيها هي معلومات خام للاستفادة منها مع المذكرات الاخرى والمادة التي تصل من الالات عند تسجيل البرقيات القادمة من وزارة الخارجية ، ووكالة المخابرات المركزية وأماكن اخرى وذلك لايصال المعلومات التي

يعتمد عليها اللاعبون في رسم خطة تحركاتهم المقبلة .

ان المعلومات التي التقطت والخاصة باللعبة ـ ليست دوما معلومات صحيحة بطبيعة الحال . فالبشر وحتى رجال السياسة القوميين الابطال يتصرفون في بعض الاحيان، بطريقة لا يمكن التنبؤ بها . كما يفشلون في التزامالمناهج المتعلقة بالعمل التي ليس لهم فيها على ما يبدو أي مجال للاختيار سوى اتخاذها .

غير أن اللعبة التي تم تأديتها بشكل ملحوظ ـكانت تتبعـ وتقيم نتائج التحركات السوفياتية في أوروبا وكذلك التحركات المضادة للبلاد الاوروبية المختلفة . والتحركات المضادة للسوفيات لهذه التحركات المضادة .

والشيء الذي كان بارزا :

وقد كانت بارزة في تقديراتها (الجارية) للصراع الصيني السوفياتي :

فالصينيون سوف يفعلون هذا ، وسوف يرد عليهالسوفيات بذلك وعليه سيكون هناك عمل وعمل مضاد ـ وسوف يتصرف بقية العالم بهذاالاسلوب كرد فعل . وتعتبر اللعبة دقيقة بشبه ٨٥ بالمئة فقط ونحن دائما بانتظار جرين ويتش ولاند ليترأس السعي وراء رسائل أخرى تتيح له فرصة التنبؤ بأمور ستحدث .

ان التنبؤ بالمنهاج العام للسياسة الاوروبية ، بما في ذلك الروس امر هين .

وقد يترك هذا الامر لاجهزة الالتقاط ـ التي تزود وتغذى بمعلومات حديثة من نوع عال خاصة بالاقتصاديات ، والرأيالعام وأمور أخرى قابلة للتغيير .

والآن ننتقل الى البلاد الافرو أسيوية ، التي تصبح معها مسألة التنبؤ أكثر صعوبة ـ كما أن علينا أن نعتمد بصورة اكبر

وأكبر على الحساسيات الانسانية والغرائز والتي لم نتناولها بعد والكيفية التي يتم بها ادخالها ضمن جهاز الالتقاط .

فالامر يتطلب اكثر من مجرد جهاز التقاط المعلومات للتنبؤ بسقوط نكروما ـ فلقد تصورنا أن الجيش الغيني أضعف من أن يقوم بانقلاب ، وحدث انقلاب قاسم في العراق .

(والشواهد دلت على ان حكومة نوري باشا برهان حقيقي على الانقلاب) وكنا نشك في قوة تحمل ومثابرة الفيت كونج .

وحتى بعد توضيح الصورة خلال الحساسيات والغرائز لهؤلاء الذين يقومون بدور الزعماء فان تقديرات اللعبة بناء على هذه العناصر المعينة ثبت خطأها .

ولا بد ان نضيف ، بانه عندما تصل النتائج التي يصل اليها أعضاء اللعبة الى وكالة المخابرات المركزية يبدأ محللي الوكالة في تصحيح التقديرات التي لديهم بناء على هذه العناصر .

ويمكن لوكالة المخابرات المركزية بواسطة وسائل لديها معلومات سرية كبيرة ليست متاحة للاعبي اللعبة ـ فهي في امكانها ان تعرف غالبا ما سيفعله الزعماء القوميين . والذين سيصبحون زعماء وكنتيجة لهذا يمكنهم الوصول الى معلومات مختلفة من وسط المعلومات التي يستنبطها اللاعبون .

وبصفة عامة ـ لم تبرهن أفضل الوسائل المعروفة والخاصة بالتحليل المتسم بالذكاء ـ واعضاء اللعبة ـ والمخابرات المركزية الاميركية ووزارة الخارجية أو أي جهة اخرى ـ .

لم تبرهن على ان التنبؤ بتصرفات زعماء تلك البلدان الافريقية والاسيوية وجنوب اميركا حيث نجد الوضع الاقتصادي أمرا ميئوسا منه . وحيث لا يمكن أن تغلق الفجوة بين ما هو متوقع وبين ما تم تحقيقه بالفعل بشكل ملحوظ .

وحيث يعاني الشعب خيبة الامل ـ وحيث يسعى الزعماء اذا ظلوا بالحكم أن يعتمدوا على محبة الشعب أو الى اكتشاف وسائل جديدة تمكنهم الحصول على ما يمكن الحصول عليه من المزيد من المساعدات من البلاد الغنية أو من كلاهما معا . فيما عدا هؤلاء الذين يعتمدون كلية على محبة الشعب لهم (والذين من الممكن التنبؤ بما سيحدث بشأنهم بسهولة) .

ان زعماء الشعوب الفقيرة في البلدان المتخلفة اقتصاديا بصورة ميئوس منها ـ لا يؤدون دورهم مستخدمين القواعد ـ ولكنهم يقومون بعمل قواعد خاصة بهم .

يعتقد ديغول ـ على سبيل المثال ـ انه يقوم بلعبة الشطرنج (ضمن هذه اللعبة) ـ الا أنه يكتشف ـ وهذا ما أثار غضبه المفاجىء ـ أنه لم يكن يلعب الشطرنج بالمرة ولكنه كان يلعب لعبة « الصوص » . ولعبة الصوص هذه على غرار ما يقوم به الصبية في الولايات المتحدة حيث نرى سيارتين تركض الواحدة وراء الاخرى في الطريق الرئيسي وذلك بسرعة فائقة .

ملحوظة (لعبة الصوص أو يمكن تسميتها لعبة الجبان أو الشخص العديم الخبرة)

ان الفائز في مثل هذه اللعبة هو الشخص الذي لا يفقد أعصابه . والذي لا يترك الطريق شاغرا (مفتوحا) أمام الاخر ليأخذ مكانه .

في هذه اللعبة « لعبة الصوص » أو الجبان أو الشخص عديم الخبرة » لم يكون أمام ديغول ، كلاعب ، فرصة سانحة . فلقد كان الحظ بجانب معتوه أو (مختل العقل) ذو حزم اكثر ما هو بجانب أمهر الاستراتيجيين فعندما يدخل اللاعبون اللعبة ـ هؤلاء اللاعبون الذي تم اعدادهم على قواعد اللعبة ـ كان اللاعبون الآخرون يتدربون من وقت الى آخر على الاساليب الجديدة للفوز .

ان الخدعة أمر هام في أي لعبة ـ سواء البوكر ـ الحرب ـ او العمل على ان مناورة لعبة « الصوص » ليست خدعة تماما .

هذا هو أول سبب يجعل هذه اللعبة سلاحا أقل فعالية للمخابرات عندما يتناول مشاكل ما يمكن ان نسميه « بالعالم غير الغربي » . وهناك سبب آخر هو أن التنبؤ بالافعال وردود الافعال من جانب حكومتنا ، أمر ليس بالسهل .

ان التحيز والجهل ومعوقات اخرى ، حتى من جانب بعض كبار الموظفين ، يؤثر في القرارات لدرجة لايمكن أن تصدق . فنحن لا نتناول، بل لا يمكننا الاقتراب من القضايا المسائل، أمثل المسألة العربية الاسرائيلية ، فيتنام ، روديسيا ـ بنفس برود الاعصاب والاهتمام الشخصي بأعتبارات اللعبة . والتي نضعها في بالنا لدرجة نستقصي معها أي شيء آخر ، وفيالوقت الذي نفكر فيه مليا بالتحركات السوفياتية تجاه البلاد التي تسير في فلكها .

ولا يمكننا على سبيلالمثال ان نسجل مبارزة بين جون فوستر دلاس وجمال عبد الناصر مثل ما هو في استطاعتنا تسجيلها بين جوليوس وكاسيوس كلاي .

ومن بين المشاكل الكثيرة المتعلقة بالعالم غير الغربي، نبدأ بالافصاح عن اضطرابنا فيما يتعلق بالمناهج الواضحة للعمل من جانب الزعماء الافرو أسيويين ، واضطرابنا هذا مشوب بالشك من ناحية الشكل الذي سيأخذه عملنا الخاص بنا تجاه هذه المناهج .

ان الرأي العام بصفة عامة ، والضغوط التي تمارسها مجموعات ذات المصلحة الخاصة ، واستعدادرجال الكونجرس للدورة القادمة للانتخابات (والذين لن يقفوا مكتوفي الايديللحصول على معلومات موثوق بها تتعلق بهذه المشاكل ـ وهم لا يؤتمنون في عدم تسرب هذه المعلومات الىالصحف) ، وعوامل اخرىمثل

هذه كثيرة : هذه الامور جميعها تجعلنا لا نقبل (لا نسلم) بان اللعبة تسير في الطريق « السليم » حيث اننا لا نجابه هذه المشاكل لا بأكثر من (تقييم) فاتر لمصالحنا القومية .

ولذا فان هذا التحرك الخاطيء أو ذاك من جانب حكومتنا يعتبر عاملا معينا في تقديراتنا . ونحن نحصل على ما يمكننا من تقييم للمواقف من مكان آخر وذلك لتقدير تأثير التحرك على الآخرين ، والتنبؤ بردود الفعل من ناحيتهم واقتراح تحركات « سليمة » نسير فيها كاستجابة لردود الافعال هذه مع الاضافة بأننا لا نمنع بطبيعة الحال من العمل بسبب الاعتبارات الخارجية .

ولكن هناك شيء واحد يجب أن يوضع في الاعتبار بصورة مؤكدة ــ وهي المعوقات التي سنتعرض اليها بسبب المعلومات الخاطئة . والرأي العام المتبلد (الفتور من جانب الرأي العام) والضغوط التي تمارسها المجموعات التي تضع مصالحها الشخصية فوق المصالح القومية ومن جانب رجال الكونغرس الذين تحفزهم أنفسهم عن طريق سيطرتهم على اثنين من المشتركين في اللعبة ، كما أن كبار واضعي القرارات ــ ليس لديهم النية في ترك مستقبلنا ليحدده النوابغ في ممارسة لعبة « الصوص » في افريقيا أو آسيا أو أي مكان آخر .

وهناك حدود لما تستطيع ان تفعله حكومة بلد ديمقراطي بالنسبة للمعوقات الداخلية ، اما بالنسبة لما يمكن أن نفعل في داخل بلاد الآخرين فليس هناك عوائق .

أو بالاحرى . فعندما تقرر حكومتنا ما ستفعله بالنسبة للبلدان الاخرى ــ نجدها محدودة فقط باعتبارات الفعالية .

فنحن نعلم الدبلوماسيين التابعين لنا بأن سياستنا الخارجية يجب ان تكون فعالة القيم . وان تعكس المبادىء الديمقراطية والاخلاقية لشعبنا .

واذا لم نكذب فيما يتعلق بنوايانا ــ ولم ندخل في مداولات (اتفاقيات)تتنافى مع الشرق ــ حيث ان هذا الامر عديم الجدوى ــ وحيث أن الحقيقة تبقى بأننا غير صادقين في نوايانا وأننا فاشلين في المضي في هذه الاتفاقات ــ حيث تكون لنا مصلحة في ذلك (في هذه الاتفاقيات) في وقت يمكننا أن نفلت منها . (أو أن نكون في حل منها).

وبطبيعة الحال ــ أنني لا ادافع عن هذا الازدواج في السياسة كما انه ليس عندي اي ميل تجاه واحدة او اخرى ولكني احارب فقط لوجودها .

فان كلتي اللعبتين ــ اللعبة ذات الظروف المثيرة التي نلعبها في مركز الالعاب والعاب الامم التي يؤديها الدبلوماسيون والجنود التابعون لنا للمحافظة على بقائهم في العالم بصفة عامة ــ يجعلنا نفترض ان القضية هي تلك .

ولاسباب عدة ، ولحسن الحظ ــ يمكننا أن نجعل من الرئيس عبد الناصر (ناصر مصر) ــ او يقدم لنا ناصر مصر أفضل قضية في التاريخ لتوضيح الاسلوب الذي تسير فيه استراتجيتنا ذات القيم المزدوجة . فأولا ولحد ما يبدو أن الناصر كان باستمرار شخصية ضرورية للدراما (لاستكمال مقومات الدراما) . فعندما كنت معتادا أن اجلس حول الطاولة وخلال الفترة التي كنت أؤدي فيها دوري بدا واضحا لهؤلاء الناس الذين يتمتعون بأي احساس من التوازن الدراماتيكي ، أن لعبة بدون ناصر سوف تكون تماما في شكل لعبة (يشترك فيها) بوني وكلايد دون س.ي موس .

تجارب العمل السياسي في سوريا

اذا لم تستطع تغيير الاطار ، فالافضل تبديل اللاعبين

بعد ظهر احد ايام شباط الباردة والممطـرة في سنة ١٩٤٧، قبل تأسيس مركز الالعاب ، اتصـــل السكرتير الاول سيشل في السفارة البريطانية في واشنطن بلوى هندرسن ، السكرتير المساعد في وزارة الخارجية والمختص بشؤون افريقيا والشرق الاوسط . كان لديه رسالتان هامتان من وزارة الخارجية وعلى قدر كبير من الاهمية . كانتا اشبه بشيء يجب تسليمه بواسطةالسفيرالبريطاني الى وزير الخارجية ،الجنرال مارشال ، ولكن منذ ان ترك الجنرال مكتبه لتقضية عطلة نهاية الاسبوع ، جاء سيشل يقترح ان بامكانه الاطلاع على فحوى الرسالتين الهامتين ويمهل اندرسون حتى يفكر في الامر قبلالاجتماع الىالسفير البريطاني صباح يومالاثنينالباكر.

وصل سيشل الى وزارة الخارجية وقدأخذموظفوهايستعدون لمغادرة مكاتبهم وتمضية عطلة اسبوعية هادئة . كان لوي هندرسن يعمل حتى الثامنة وربما حتى التاسعة كل يوم جمعة .. وما ان تلقى المكالمة الهاتفية حتى تخلص من معاونيه وجلس وحيدا فيمكتبه ينتظـــر .

وجاء السيد سيشل يعلن في مقابلته المقتضبة امورا محزنة وسيئة . كانت الرسالتان بمثابة اعلان رسمي هو ان « الســـلام البريطاني » ، الذي حافظ على السلام والامن في العالم اكثـــر من قرن، بدأ يقترب من نهايته. انحكومة صاحبةالجلالة لا تستطيع ان

تتحمل دفع مبلغ خمسين مليون استرلينية لتدعم مقاومة الحكومات التركية واليونانية للاعتداء الشيوعي ، كما كانت تفعل في السابق .. ولا فرق اكان ذلك بواسطة حرب العصابات ام الحرب النظامية مع الاتحاد السوفياتي . والا على الولايات المتحدة الاميركية ان تتحمل النتائج او تترك الروس يتدبرون امر المقاومة بانفسهم . لم يكن لوي هندرسن بحاجة لكي يفكر مليا .

ولم يكن هندرسن ، الذي له خبرة دبلوماسية كبيرة بما في ذلك مهام في موسكو وعواصم اخرى تدور في فلك الاتحاد السوفياتي

ان هذا الفراغ الذي تعتبر هاتان الدولتان جزءا منه — لم يكن بحاجة لقضاء الويك اند في التفكير للتحقق من أن دول غير اليونان وتركيا في خطر .

يمتد حول جنوب أوروبا الذي لم يصل اليه بعد الستار الحديدي وعبر شمال أفريقية والشرق الاوسط .

وبتبليغ المذكرة البريطانية التي سلمها مستر سيشل بهدوء تام ، منحت الولايات المتحدة فرصة الاختيار بين أن تصبح قوة عالمية نشيطة أو قوة لا قيمة لها — وكما عبر عن ذلك فيما بعد محاضر في معهد الخدمات الخارجية التابع لوزارة الخارجية او أن يرى السوفيات وقد أصبحوا عاملا اكثر تهديدا في السياسة العالمية من نازيي المانيا .

ثم قال سيشل « آمل الا أكون قد أفسدت عليك الويك اند » .

ويعتبر برد ومطر شباط بعد الظهر امرا رمزيا .

لقد كان شتاء عام ١٩٤٦ — ١٩٤٧ من أسوأ فصول الشتاء في بريطانيا . اذ كان هناك نقص في الفحم وسلسلة من العواصف الثلجية التي جمدت الانتقال حيث يمكن جلب الفحم علاوة على القضاء على قمح الشتاء كما انه سبب ظروف عمل مستحيلة .

فأغلقت الكثير من المصانع ابوابها وأصبح حوالي ٥٠ مليون عامل بلا عمل .

وقد كانت الحكومة البريطانية في ذاك الوقت ـ مشغولة بالفوائد التي يحصل عليها كبار السن ـ وساعات عمل أقصر وبما يسميه رجال الاعمال الاميركيين « حوافز الانتاج » ، وفي وقت كانت في حالة لا تسمح بتناول مشاكلها الداخلية تركت بمفردها لتدير دفة الموقف الخاص بالشئون الخارجية والذي تتطلبه اللعبة الجديدة للامم .

وبريطانيا شأنها في ذلك شأن فرنسا وايطاليا (كلاهما كانتا في خطر من السيطرة الشيوعية) ويعانون أزمة اقتصاديةخطيرة. ان كل ما يمكن ان تقدمه بريطانيا كان النصح السديد ـ واذا كان الدبلوماسيون الاميركيون وموظفو المخابرات في وضع او في حالة تسمح معها أن يؤخذ بهذا النصح .

وقد حدث أن ترك الوزير مارشال كاتبه مبكرا في يوم جمعة بعد الظهر لكي يأخذ القطار الى برنستون حيث يلقي أولى خطبه الكبرى منذ أن تولى منصبه ـ خطاب كان يعبر فيه عن أمله في ان يتفهم الاميركيون الشباب مليا الوضع الخاص الذي تقع فيه الولايات المتحدة الآن في العالم من الناحية الجغرافية والمالية والعسكرية والعلمية وأنهم سوف يعاونون بلادهم في انماءالاحساس بالمسئولية تجاه حفظ النظام والامن في العالم. احساس ذات أهمية لافعال هذه الدولة وأوجه الفشل التي تقابلها عندما تتصرفوذلك بالنسبة للامن والنظام العالميين .

القى مارشال هذا الخطاب في صباح اليوم التالي دون أن يعلم بالمذكرة الدبلوماسية بشأن اليونان وتركيا .

وفي نفس الوقت في واشنطون استدعى لوي هندرسن ـ مساعد وزير الخارجية دين اتشسون من حفلة عشاء في سفارة

احدى دول اميركا الجنوبية وناقش الاثنان المشكلة حتى ساعة متأخرة من مساء ٢١ شباط ثم ناقشاها ثانية مع رؤساء المكاتب والهيئات التي لها علاقة بالموضوع بصورة مباشرة تماما .

وفي صباح يوم الاثنين التالي ، وعندما وصل الوزيرمارشال مكتبه ، قضى مرؤوسوه المباشرون يومين في استيعاب متطلبات المشكلة وتحديد أبعادها .

واستدعى مستر أتشيسون جورج كينان الذي كان يمتع نفسه ذهنيا في الكلية الوطنية للحرب بعد أن قام بجولة ناجحة تماما تتعلق بواجبه كنائب رئيس بعثة في السفارة الاميركية في موسكو وفي آخر هذا اليوم وصل مستر كينان الى وزارةالخارجية ليلحق بلوي هندرسن في (تشكيل) لجنة خاصة تصيغ خططا لمواجهة الظروف المتغيرة .

ولم يبلغ « مجتمع المخابرات » ــ الجيش ــ البحرية ــ وهيئة مخابرات الطيران « المخابرات المركزية » التي تم تشكيلها من وقت قريب ، وطليعة المخابرات المركزية الاميركية ــ لم يبلغوا جميعا بالازمة حتى الا بعد مرور ساعات كثيرة وفي نفس الوقت الذي بدأت الصحافة تكتب بشأنها القصص.

وهنا اتخذت المشكلة شكلا مختلفا عن أي شيء آخر حيث كانت الفرصة متاحة للدخول في عمليات ضرب بالسوط من النوع الجيد في المشاجرات الغاضبة للمخابرات التي نشبت : فلقد هوجم مركز الالعاب للمخابرات وموظفوه الذين كانوا بعيدين غالبا عنمكتب الحرب للخدمات الاستراتيجية هوجموا بالفعل من جانب الهيئة العسكرية لكونهم جماعة من المفكرين المثقفين غير الناجحين ذوي الاهدافالسيئة الذينلم تعد كلياتهم راغبة فيعودتهم، كما ان نشوب الموقف الجديد جعل هــذا الاتهام مناسبا أكثــر ــ ونضيف أن مذكرة البنتاجون كانت تدعو الى موقف عملي بدرجة عالية ــيمكن

ان تحققه فقط خدمات تؤدي تحت اشراف نظـام عسكري تمت تجربته .

وربما اكـون علـى درايـة بشكل غير عـادي بالنواحـي التنظيميـة لمعركة واشنطـون التـي جرت في شهـر شـباط حيث أنني كنت في ذاك الوقت عضوا في الفريق الاستشاري للادارة المختص بدراسة الفوضى التنظيمية التي سادت (اجتاحت) مجتمع المخابرات واصدار توصيات لعلاج هذه الفوضى .

وانني أتذكر بالفعل انه على الرغم من ان واحدا مـن كبار ضباط الجيش (في المخابرات العسكرية) كان قد ادلى علنا وعلى وجه التقريب بان الضرورة المفاجئة لدخول الولايات المتحدة بصـورة مباشرة في الحرب الباردة التي كانت آخذة في التزايد من الممكن أن تنقذ دور مخابرات ما وراء البحار التابع لحكومتنا والا فانها سوف تبتلع من جانب الوكالة الجديدة .

وعلى أي حال ، فان المدير الحالي للمخابرات المركزية ـ الادميرال سيدني سوورز ـ قد كسب المعركة البيروقراطيـة ـ كسبها تماما حتى أن المجموعة الجديدة وجهت اليه كل المسئوولية في ايجاد جهاز سري ، يقوم بالاستخبارات «وأوجه نشاط اخرى» . وانه قادر على القيام بدوره في برنامج شـامل قد وضعته وزارة الخارجية بمهارة .

وانه من السهـل دوما ـ بالنسبة لمؤرخ وذلك بعـد مرور عشرين عاما على حادث أن يرى الحماقة التي أرتكبت من جـانب المشتركين فيها .

وعلى الفرد أن يتذكر بان حتى الاحداث التي كان معترف على أنها ذات أهمية تاريخية كبرى ـ في وقت من الاوقات ـ يتناولها الناس ويثيرونها الى حد كبير ـ رغم ما يتمتعون به من حـذق ودهاء ـ من حيث الاعتبارات الموضوعية وليست النتائج .

كل فرد يعلم اننا لن نعاني متاعب الحرب الباردة الآن. والامر الذي جعلنا ضعفاء للغاية في يالتا هو اننا كنا قد اصررنا على بقاء قواتنا في اوروبا حتى أصبحت نوايا السوفيت أوضح .

وسوف يتذكر أي فرد اشترك في وضع القرارات التي اتخذت بعد الحرب والتي تبدو الآن غير متسمة بالحكمة في ذاك الوقت ، سوف يتذكر ان وطأة الظروف في هذا الوقت (كانت تشكل صعوبة) أمام واضعي هذه القرارات من جانب ـ وانه ليس أمامهم الا ان يفعلوا ذلك .

وعلى غرار هذا ـ يبدو واضحا تماما الآن ان الاسلوب الحقيقي الذي اتخذته لعبتنا مع السوفيات ـ بعد اعلان بريطانيا الانسحاب من اليونان وتركيا وفي الوقت الذي يعترض واضعي القرارات من جانبنا عوائق وموانع لم تكن واضحة لمؤرخي اليوم الذين يكتبون عن هذه الفترة .

ولقد كان هناك عائقان اساسيان الا وهما :

اولا ـ كان هناك تناقض ضروري بين موقف حكومتنا المعلن عنه بصورة عامة تجاه المسائل العالمية وبين المواقف المتخذة داخل الاماكن التي لا يمكن انتهاكها (الوصول اليها)والتابعة لوزارة الخارجية والبنتاجون .

ولقد كتب جورج كينان في مطلع عام ١٩٤٦ وخلال الاسابيع القليلة الاخيرة عندما كان يشغل منصب نائب رئيس البعثة في موسكو ـ كتب خطابا لوزارة الخارجية شرح فيه باختصار وبطريقة صحيحة شكل الحرب الباردة القادمة والتي سلم بها في الحال باعتباره تحليلا دقيقا للنوايا السوفياتية من حيث النظرة والتصرف.

ولقد ناقش المستر كينان في نفس الوقت وبصورة مقنعة أنه اذا لم يكن هناك مفر من تقسيم أوروبا فلا بد وأن يقع اللوم على الروس وليس على أنفسنا .

ولقد اشار ونستون تشرشل في خر ، القاه في فلتون في ولاية ميسوري الى « الستار الحديدي» . ولة أعطى حضور الرئيس ترومان تصديقا رسميا من جانب حكومـ الولايات المتحدة الاميركية لهذا الموقف .

ولقد كانت السياسة الرسمية لا تزال اهر بأن « روح يالتا » كانت بمثابة توجيه لاعمالنا وان من الممكن بالنسبة للامم المتحدة وذلك عن طريق التفاهم والتعاون بين الدول الكبرى « المحبة للسلام » ان تحافظ على النظام في انحاء العالم وذلك بفض اوجه الخلاف بينهم بأسلوب متحضر (متمدن) .

ان أوجه الاتصال الحكومي (من الداخل) سواء كانت شفهية أو خطية والتي هي في حقيقتها تشير الى شيء آخرسوف يطبع عليها عبارة « سري للغاية » .

واخفيت حقيقة دخولنا في الحرب الباردة مع السوفيات وذلك بكل وسيلة ممكنة ـ حتى الى الحد الذي كنا فيهنستخدم اسماء مضللة للوحدات المصلحية التي تقوم بأعمال تتصل بقضايا « الستار الحديدي » .

اما العامل المعوق الثاني فيرجع الى (النقص) في عدد الاشخاص الذين يتمتعون بامكانيات تمكنهم من محاربة (ما يطلق عليه) الادميرال سويرز مدير جماعة المخابرات المركزية لفظ « الحرب التي هي ليست بالحرب » .

كما ترك « مكتب الخدمات الاستراجية » التابع للولايات المتحدة أثرا ملموسا عن حصص الاستخبارات السرية في أوروبا، ولكن هناك قليلون يمكنهم ان يحلوا محل هؤلاء التابعين لبريطانيا في اليونان ، تركيا والبلاد الاخرى التي تشمل الفراغ الجديد.

واذا كانت استراجيتنا هي من النوع الذي تحاول ايقاف الحرب الباردة، فانها في نفس الوقت هي التي تحارب من أجلها. أو على

الاقل من النوع التي تتظاهر باتخاذ موقف دفاعي فقط تجاهها — فسوف نكون في هذه الحالة بحاجة الى جهاز استخبارات دبلوماسي من النوع المتقدم للغاية والذي لم يوجد بعد .

ان الاقسام الخاصة بالشرق الادنى وافريقيا والتابعة لوزارة الخارجية كانت ضعيفة بدرجة كافية ، كما أن حصص أو (نشاط) مركز الالعاب للاستخبارات وهيئات الاستخبارات التابعة للبنتاجون في منطقة الفراغ لم يكن له وجود في الحقيقة .

وكان هناك نشاط مبعثر لعملاء مكتب الخدمات الاستراتيجية من جنسيات مختلفة كانت توجهه واشنطون عن طريق أساتذة الكليات المتقاعدين ونوع من رجال الاعمال الذين يصلحون في أداء مهمة الاستخبارات وهذا كل ما نعرفه .

ولقد كانت عملية التعزيز (التدعيم) عنصرا واضحا وله اسبقية للقيام بمسؤولياتنا الجديدة .

أو بالاحرى — تعتبر الاسبقية رقم ٢

ان الاسبقية الاولى في أي برنامج جديد هو ان نحدد على وجه الدقة نوع البرنامج الذي علينا أن ننجزه .

وبصفة عامة — فان الامر الذي كنا نحاول أن ننجزه هو ملء الفراغ الذي تركه رحيل بريطانيا من اليونان وتركيا — فراغا — كما سبق ان ذكرنا لا يشتمل فقط على اليونان وتركيا ، بل مساحة اكبر ، وهي الشرق الاوسط برمته — وان نقوم بهذا بأسلوب كان يتمشى مع وسائلنا واسلوبنا في آداء الاشياء .

فلقد كنا ندخل لعبة جديدة — وكما كنا نراها كانت تضم بصفة أساسية لاعبين آخرين من حكومات البلاد التي تشغل الفراغ اكثر من السوفيات .

وكما ذكرنا في الفصل الاخير ان هذه اللعبة كانت تعتبر

الى حد ما لعبة تعاون والى حد آخر « لعبة صراع » .

وهكذا فان القرار الخاص بالشيء الذي سينجزه البرنامج الجديد – على وجه الدقة – هو شيء محدد لغاياتنا الفعلية في الشرق الاوسط مع اعتبار الدرجة التي من الممكن ان يحدثمعها صراع فيما يتصل بغاياتنا في اليونان وتركيا والحكومات الاخرى في الشرق الاوسط .

وهذا امر لم يكن بالهين كما عبر عنذلك ضابط مخطط محنك ذو وزن في وزارة الخارجية « فنحن ليس أمامنا اهداف ولكن مشاكل فقط » – مشاكل ناجمة عن النوايا الصهيونية لخلق دولة يهودية في فلسطين والنوايا العربية لمنع تحقيقها ومن الخلافمع حلفائنا .

(والبنتاجون نفسه) حوّل الدور الذي يتحتم ان يقوم به الشرق الاوسط في خطط الدفاع في المستقبل ، وقضية المساندة الرسمية التي يتحتم أن تعطي الشركات النفط الاميركية والتي أصبحت نشيطة بصورة متزايدة فيالمنطقة.

وفيما بعد اتخذت غاياتنا النحو التالي :

١ – منع أوجه الصراع الاقليمية والتي تضمنا انفسنا مع السوفيات ، وتحويل الحرب الباردة الى حرب ساخنة .

٢ – تمكين الحكومات في المنطقة من أن تصبح قوية سياسيا وعسكريا بصورة كافية ، والمشاركة بصورة فعالة في المجهودات العالمية للحد من الشيوعية الدولية .

٣ – أن نؤثر في الاحوال البيئية مؤيدين بذلك الاستثمار التجاري الاميركي .

ومع ذلك وفي عام ١٩٤٧ كان « الصراع الاقليمي » الوحيد هو الحرب العربية الاسرائيلية ، وحيث كانت كل من حكومتنا

والسوفيات . وفي نفس الوقت كانوا بعيدين عن ان يقرروا المكان الذي يوضع فيه تعاطفهم .

ان الاحتمال بأن لا تكون حكومات المنطقة قد تلقت معونات من جانبنا سياسية وعسكرية محمودة وغير مثيرة للنقد ـ هذا الاحتمال لم تدركه واشنطون ، كما كان واضحا في ذلك الوقت ان « الظروف البيئية كانت في صالح الاستثمار الاميركي التجاري » . وكانت هناك رغبة من جانب الشرق الاوسط بقدر الرغبة التي كانت لدينا .

واذا كانت هذه الاحوال غير موجودة بالفعل فيرجع هذا الامر الى اوجه التقصير من جانب الزعامة في الشرق الاوسط . هكذا كنا نرى المشكلة الاساسية .

وكما قال أحد السفراء بأنه اذا كان لدى بلاد الشرق الاوسط فقط ـ زعماء أذكياء بدرجة كافية ، وغير فاسدين ـ بحيث يمكن لهم أن يفعلوا من أجل مصلحة بلادهم ، لكان من الممكن لنا أن نصل الى غاياتنا مهما كانت هذه الغايات .

الا أن هذه البلاد فيما عدا واحدة أو اثنين لا يتوفر لهما هذا النوع من الزعماء . وهكذا علينا (حتى يتيسر لنا الوقت لصياغة أهداف صلبة بعيدة المدى) علينا أن نركز اهتمامنا في البحث عن وسائل تضمن ظهور « النوع السليم من الزعماء » كما أشرنا اليهم في هذه الايام .

وهذا الامر يرجع كلية لقواعد لعبة الامم . فلتفعل أقصى ما يمكن عمله حتى تستطيع أن تكسب (أن تفوز على هؤلاء الذين انت في صراع معهم ، وان تفوز انت وهؤلاء الذين يربطك بهم تعاون) .

فاذا وجدت أن هذا أمرا لا يمكن تحقيقه عليك اما أن تغير آراءك المتعلقة « بالفوز » أو عليك أن تغير هؤلاء اللاعبين الذين

يقفون حجر عثرة في طريقك .

لقد كان يفهم من العبارات الموجودة في المذكرات الموثوق بها كحكومة الولايات المتحدة الاميركية في مطلع عام١٩٤٧ بان هيئات الاستخبارات والهيئات الدبلوماسية كما كانت ، كان يمكنها أن تحدث تغييرات في زعماء بلاد معينة في الشرقالاوسط .

غير ان المؤرخ الذي (يرجع بنظره الى الوراء على مدى العشرين سنة الماضية للوصول الى تعليل منطقيلاعمالنا خلال هذه الفترة ــ من الممكن أن ينسى هذا الامر الا وهو : على الرغم من اننا كنا في بداية الحديث عن خط واقعي الا انه كانت هناكحاجة الى الجاسوسية والتسهيلات الخاصة بالعملالسياسي، وذلك لمجابهة الروس بما يتعلق بشروطهم الخ ــ كما ان التفكير السائد كان لا يزال تفكيرا مثالي .

ان فحص مستندات الدولة ، والبنتاجون ، ومجموعة الاستخبارات المركزية (المخابرات المركزية الاميركية فيما بعد) أعطى انطباعا بأننا كنا مثاليين علنا أما سرا فكنا ميكافيليين .

وسوف يتذكر اي شخص شارك في أولى مراحل لعبة الامم في الشرق الاوسط ، بأننا لم نكن ميكافيليين حقا وأن المثالية الحالية (الجارية) هي غالبا كريمة فيما يتعلق بالنشاط المخفي والنشاط المكشوف .

ولقد أصبح التيار اكثر قوة بازدياد عملياتالتعزيز المساندة الغير مكشوفة . وكان الضباط المتطرفون التابعون لمكتب الخدمات الاستراتيجية والهيئة والضباط المتحفظون التابعون للهيئة الدبلوماسية والذين كانوا يقومون بمهام اعلامية وثقافية ، وحتى

بعض الدبلوماسيين الدائمين ـ كان كل هؤلاء غالبا من الارساليات السابقة ومن الخياليين (الرومانتكيين) الذين كانوا يميلون الى تصديق امكانية تغيير الزعامة في بلاد الشرق الاوسط وبالاخص في البلاد العربية .

كما كانت امامهم مسألة الاطاحة باشخاص غير شرفاء ومزيفين معينين يبقون في السلطة كزعماء ولا يجب ان يشغلوا اي منصب آخر .

ولقد صرح محاضر اشترك في برنامج التوجيه الذي تقوم به مجموعة الاستخبارات المركزية بقوله : يبدو ان السياسيين في سوريا ، ولبنان ، والعراق ، ومصر يتم انتخابهم ليتولوا السلطة ولكن يالها من انتخابات !

فالفائزون كانوا جميعهم مرشحين من جانب الدول الاجنبية، كما انهم من بين ملاكي الارض القدماء ، والذين يحددون لاجرائهم من القرويين (الريفيين) الكيفية التي يصوتون بها (طريقة الانتخاب) ـ أو من بين الاغنياء اللصوص الذين في استطاعتهم شراء الاصوات الخاصة بهم .

غير أن شعوب تلك البلاد قوم أذكياء فهم يتمتعون بميل طبيعي نحو السياسة . فاذا كان هناك جزء من العالم ينادي من أجل التقدم الديمقراطي ـ فالعالم العربي يعتبر هذا الجزء .

لقد كان هذا المحاضر يعلن عن الرأي الذي يعتنقه الضباط بالفعل في الهيئات المختلفة . وقد عزز (أيد) هذا الرأي الضباط الجدد القادمون من العالم الخارجي ـ من عالم العمل في الكليات ومن اماكن أخرى حيث يكون الشخص قد اعتاد على النظر باحترام الى الذكاء البشري والروح العملية .

ان الاجابة على المذكرة الديبلوماسية البريطانية التي صدرت في ٢١ شباط لعام ١٩٤٧ كانت تنم عن عقيدة الرئيس ترومان والتي كان قد اعلن عنها بعد ثلاثة اسابيع من العمل الجاد داخل وزارة الخارجية والبيت الابيض وذلك في الحادي والعشرين من شهر اذار.

ولقد تلا هذا توا الاعلان عن مشروع مارشال، وذلك في شهر ايار . ومنذ ذلك الوقت نشر الكثير من التعليقات الصحفية الرسمية وشبه الرسمية (كانت الاخيرة تتخذ شكل خطب في الكليات يلقيها كبار موظفي الحكومة . كلها بدأت تتناول بشكل صريح موضوع الحرب الباردة وسياستنا ، « محتوية » التوسع السوفياتي .

وعلى الرغم من ان الموضوع كان مادة لكتب ممتازة ، الا ان الامر الذي لم يكشف عنه علنا هي الحملة التي شنتها الحكومة سرا لملء الفراغ .

وانني سوف احصر انتباهي في هذه الحرب التي هي ليست بالحرب ، كما اطلقت عليها ذلك وكالة الاستخبارات المركزية فيما بعد .

وقد بدأت هذه « الحرب » قبل انشاء وكالة الاستخبارات المركزية بوقت ليس قصير . اما فريق الديبلوماسيين ــ والديبلوماسيون الذين كانوا يعملون في الخفاء على محاربتها فهم من وزارة الخارجية ووزارة الدفاع ومن جانب نوع من المكاتب المؤقتة التي كان بعضها موجودا منذ الحرب العالمية الثانية والبعض الآخر قد أنشأ من أجل فترة انتقالية بين الحرب والسلام . كان يسود هذه المكاتب خليط لا ينسى من الثقة المتزايدة للغاية والحذر المتناهي .

كان النوع الاول متمثلا الى حد كبير في شكل النقد البدائي

للاساتذة المسنين من الانكليز والثاني في شكل اتجاه نحو مصادر لاستخبارات ديبلوماسية بريطانية الى اقصى درجة ممكنة .

وعلى أية حال فالفكرة السائدة التي ظهرت بين هذا الخليط هي ان « تحاول المشي قبل ان تبدأ الركض » كما كان قد تقرر أن تكون مخاطرتنا الاولى الخاصة بالتدخل في الشئوون الداخلية لدولة ذات سيادة — سوف تأخذ هذه المخاطرة شكلا متواضعا يؤمنها تبريرا الى قاقصى الحدود دون مساعدة — او حتى بمعرفة البريطانيين للامر .

ولكن السؤال الذي نطرحه هو أين المكان الذي نجرب فيه هذه المخاطرة ؟

بالنسبة لليونان والاتراك فليس بيننا وبينهم خلاف (نزاع) فهم يرغبون نفس الاشياء التي نرغبها كما أن وراءهم زعامة مناسبة .

لقد كنا دائما وتقريبا في صراع مع البلاد العربية — وهذا مرجعه كلية للزعامة الضارة وذات التوجيه الخاطىء .

فقد اعتقدنا أن هذه البلاد من الممكن ان تكون حلفاء طبيعيين لنا اذا ما اشرفت عليها زعامة فعالة ومستنيرة بصورة اكبر .

ولقد كان مع العرب كل حق فيخوفهم من السوفياتوليس منا ، كما أن عليهم أن يرحبوا بعروضنا الخاصة بالدفاع .

فشركاتنا للنفط جعلتهم أثرياء .

وسوف يكونون هم المستفيدون من وراء تسوية سلمية للمسألة الفلسطينية .

ان رفض زعمائهم قبول هذا الامر قد اعتبر من جانب واضعي الخطط الاميركيين على انه سبب معقول وتبرير للاطاحة ــ او بالاحرى هو تمكين شعوبهم من الاطاحة بهم .

ونحن في اعتقادنا أنه اذا كانت الزعامة القومية وفي أي مكان من العالم في شكل يمكن معه تبرير تدخلنا في شؤونها ــ فهي الزعامة العربية .

وتعتبر العراق اولها واكثرها اغراء حيث انها تعتبر دولة بوليسية ذات حكومة غير محبوبة .
أم العربية السعوديه فلا . (وبالنسبة لها وهنا سعينا الى طريقة اسلوب أقل وقاحة للحديث عنها ولكننا لم ننجح في ذلك، فهي مستعدة للديمقراطية) .

ولقد استثنينا كلا من لبنان والاردن ومصر لاسباب اخرى. وبهذا الاقصاء تبقى أمامنا سوريا .

فسوريا كانت في وضع اقتصادي جيد كما ان لها شعب روضته سنوات الخضوع للفرنسيين والاتراك ، وهناك كان من المعتقد ان تتوافر ظروف مثالية لاجراء انتخابات ديمقراطية التي يمكن ان يفوز بها زعماء متعاونون اذكياء .

واخيرا بدا ان اللصوص الذين يستبقون السياسيين غير الممثلين ــ في الحكم ــ عرضة ــ على وجه الخصوص للطعن باسلحتنا التي تعمدنا استخدامها .

لقد بقي الرأي السائد في الواقع ــ وهو اننا لن نحتاج الى أسلحة البتة ــ بمعنى أننا تذوقنا تماما العمليات ذات المستوى الاعلى والتي كان علينا ان نطلقها بعد كسب التجربة .

ان كل ما كان يتوجب هو وخزة خفيفة تتسم بعدم الاندفاع هنا وهناك لتشجيع السياسيين المرغوب فيهم بصورة اكبر لكي يقوموا بحملة متبعين فيها وسائل عادلة بالاضافة الى مراقبة العمل السياسي والاقتراع على نطاق الامة ولكن (بطريقة غير رسمية) وذلك لكي ينقلوا أو يبلغوا ضرورة استنتاج (كشف) حوادث الضغط والاعلان عنها .

وهذا الامر لا يمكن ان ينجزه فقط الديبلوماسيون ـ الذين في اماكنهم حتى عندما يعوقهم وضعهم الديبلوماسي من القيام بقدر مؤثر من الملاحظات ـ ولكن من جانب الصحفيين الاجانب الذين يستدعون لهذا السبب وكذا من جانب النماذج المختلفة من العملاء السريين .

ولقد وقفت في طريق الزعماء السوريين ملاحظة ادلى بها القائم بالاعمال الاميركي مع وزير الخارجية جاء فيها « نحن نعتقد بأن هذه الانتخابات سوف تكون بمثابة انتخابات نموذجية لجميع البلاد التي تحررت حديثا ، ولذا أجد نفسي متأكدا بأنه لن يزعجكم مراقبتنا لها » .

ولقد قامت الشركات الاميركية الخاصة والافراد وحتى الارساليات (بادخال الرعب) الى نفوس هؤلاء السوريين الذين ادخلوا الرعب بصورة تقليدية في قلوب المواطنين وقت الانتخاب والذين وقفوا في طريق عملية التصويت لكي تتوافق مع اهدافهم الخاصة بهم .

فلقد تلقى كل من ملاكي الارض والمستخدمين (الموظفين) ورؤساء الاقسام ورؤساء البوليس ـ تلقوا جميعا بصورة مباشرة وغير مباشرة بان من الواجب ان يسمح « للشعب » بالتمتع بالحرية الكاملة في الاختيار ـ وأن عملية القمع المتزايدة

في الداخل يعتبر أمرا مستنكرا (مستهجنا) في أعين العالم ،مثلما كان الحال بالنسبة للقمع الفرنسي والتركي ولقد حصل رئيس ارسالية النظاميين على وعد من رئيس « اتحاد » الكتاب الاكراد بألا يتدخلوا هم وزملاؤهم في استغلال امية (جهل) الناخبين الاكراد وكتابه اسماء مرشحين وفقا لاختيارهم هم .

ان عملية الوخز المتسمة بالتريث والتي كانت تمارس هنا وهناك (وقد استعرت هذه العبارة من خطاب «شخصي وسري» كتبه شخص ما في وزارة الخارجية الى القائم بالاعمال ،) هذا فحواه .

« ان تقوم حملة تعين من قبل مكاتب شركة النفط الاميركية لاخذ الصوت ، فعلى سبيل المثال كانت هناك اعلانات ضخمة (ملصقات) في الاماكن العامة تحذر (تنبه) الشعب السوري ، واخيرا وبعد التحرر من الحكم الاجنبي منذ قرون كان الوضع هو الذهاب الى لجان الانتخاب لتدلي بصوتك لصالح المرشح الذي تختاره انما الذي اثار ثائرة الشعب السوري هو عدم ذكر مرشحين معينين باسمائهم » .

٢ ـ تم الاتفاق مع سائقي سيارات الاجرة بان ينقلوا الناخبين الى لجان الانتخاب دون أجر ـ ولكن ـ بشرط ان يحصل السائقون على مكافآت مغرية من المرشحين مقابل ان يقوموا باختيار الراكبين أو أن يؤثروا في اصواتهم .

٣ ـ تم امداد جميع مناطق العاصمة الرئيسية بأجهزة اقتراع اوتوماتيكية على احدث طراز اميركي يمكن العبث بها ،

وقد وعد واشنطون ضابط سياسي ضمن البعثة بأن تكون الانتخابات « اميركية مثل فطيرة التفاح » .

واذا قلنا ان هـذه الانتخابات لم تجيء موافقـة لتوقعاتنا فسوف يعد هذا تقليل وغبن لذكائنا .

ففي حمص كانت عملية التصويت مثالية الا انه كـان هناك تدخل من جانب الملاك الذين اشاروا الى مستأجريهم ان عليهم الا يلتفتوا الى التفاهات الشيوعية والامبريالية وذلك عن طـريق الملصقات التي وضعت في ساحات المدينة . وقد عمل الناس بهذا التوجيه بالفعل وقاموا بالتصويت طبقا لهذه التعليمات تمامـا. وعلى الرغم من ذلك تعتبر هذه الانتخابات الحرة الاولى فرصـة مناسبة للسوريين وفي كل مكان آخر وهم ـ الذين نشأوا بعقيدة ان (الحكومة) هي شيء غير مريـح مفروض من الاجانب لكـي يمارسوا ولعهم في حب التمزيق والطمع في الربح والكسب .

اخذت الحكومة الاميركية علما بان بعثتهـا الدبلوماسية في دمشق قد تورطت بعملية الانقلاب الذي كان يعده حسني الزعيم . ولم تبلغها التفاصيل خطوة خطوة لانهـا هي التي ابلغت وزيرها المفوض هناك ان الحصول علـى التفاصيل لا يثير اهتمامها مـن قريب او بعيـد . وجاء جواب واشنطن هو ان الولايات المتحدة تفضل ان يقدم حسني الزعيم على تغيير الحكومة فقط ، وبعدها يعود بالبلاد الى الحكم البرلماني ، عندما يصبح ذلك ممكن الحصول ولكن الزعيم جاء يوضح انه لا يود اتباع مثل هـذه الطريقة وانه سيعتمد اربع خطوات هي :

١ ـ توقيف المسؤولين عـن الفساد من رجـال السياسة وزجهم في السجون .

٢ ـ اعادة تشكيل الحكومة على اساس اكثر كفاية وفعالية مما هو عليه الان .

٣ ــ اعــداد قوانــين اصلاحيــة في الحقلــين الاجتماعــي والاقتصادي .

٤ ــ اعــداد عمل بناء بخصوص النزاع القائم بــين العرب واسرائيل .

* * *

كان البند الاخير الذي وعد به الزعيم ــ اي العمل على ايجاد صيغة للنزاع القائم بين العرب واسرائيل ــ هو السبب الذي دفع الحكومة الاميركية حتى لا تطالب سفارتها في دمشق بالعدول عن تأييده والتعاون معه .. ومد يد المساعدة اليه ..

ولا بد من تسجيل ظاهرة ثانية هنا ، الا وهي ان الوزير المفوض جيم كيلي كــان شديد الايمــان بالمنظمات الديموقراطية ويركن اليهــا كليا ويثــق تمــاما بحريــة الانتخابــات والــرأي والصحافة .. حتى انــه وجد نفسه يشارك السوريين في ايمانهم بانفسهم .. ولكنه يختلف معهم من حيث عدم قدرتهم على تحمل مسؤولية الاعمال التي يقومون بها .. كما آمن في انهم لا ينفذون سوى ما يفرضه عليهم النفوذ الاجنبي وسواء اهم تصرفوا بذكاء او رعونة ، او كانوا يمينيين ام يساريين ...

والى جانب ذلك كان كيلي يعتقــد ان الاوضاع في سوريا ، وخاصة قبل انقلاب حسني الزعيم ، كانت ، من الاساس ، ممزقة شر تمزيق ، ولا بد ، الان ، ان يسود القانون ويعم النظام ، ولا فرق في هوية الجهة التي ستستطيع القيام بذلك وتوفره ...

* * *

اما الوزير كيلي فقد بــالغ ــ وهكذا فعلنا جميعا ــ بالغ في

تقديره لنفوذه ودالته على حسني الزعيم . وظن ان حجة اميركا لا تتعدى كونها مطلية ومحتجبة بالمساعدات الاميركية، وانه سيكون بمقدورها ان تقنعه بالعودة الى اساليب الحكم الديموقراطي وبسرعة، هذا وفق ما تسمح به ظروف المجتمع السوري .

كان كيلي يحب السوريين ويصر على انهم ديموقراطيون من طبيعتهم ، ويرى انه ربما عزلتهم فترة من الحكم الديكتاتوري عن التأثيرات الاجنبية ، وخاصة الفترات التي يلعب الخيال فيها دوره ، كما انها ستجعلهم يقفون على اقدامهم وتمكنهم بالتالي من تكوين نظرة الى العالم مستقلة وخاصة بهم .

كان كيلي عندما يتكلم هكذا يعبر عن افكار جميع رؤساء بعثاتنا الدبلوماسية في الخارج .. اذ سبق وقال لي عدد كبير من السفراء والوزراء المفوضين الاميركيين في العالم العربي ، انهم هكذا يتفهمون الامور وينظرون اليها لو انهم كانوا مكان كيلي ..

واشير هنا الى الضابط « هينتون » ضابط الارتباط السياسي الشاب وهو في الرابعة والعشرين من عمره ، فقد كان نموذجا للشبان المثاليين في وزارة الخارجية الاميركية . كان يحترم كيلي جدا ويحرص كثيرا على الاخلاص له ، انما يتحدث اليه بصوت مرتفع ويصر ويعاند عندما لا يوافقه كيلي على رأي يقترحه ولا يأخذ به هو .. والغريب انه كان يطلب دائما ان يسجل رأيه ويدرج على جدول التقارير المرفوعة الى وزارة الخارجية الاميركية. تغير هنتون اليوم ، فقد كبر واصبح رجلا ناضجا يقوده عقله لا عاطفته .. اما في تلك الايام فكان انسانا يعمل بعاطفته وكان من بين الذين يعتقدون انه ، حتى في سوريا ، فان حكما صالحا ليس فقط مرغوبا فيه ولكنه ممكن بحد ذاته .

واود ان اشير الان الى علاقاته مع كيلي حول موضوع حسني الزعيم بالذات :

كان هنتون على خلاف شديد مع كيلي وميد وجميع الآخرين، وعلمت ان ميد عمل على اقناع الوزير المفوض بوجوب ابقاء هنتون بعيدا ، بل معزلا ، عن جو الترتيبات الاخيرة للانقلاب ، والمعروف ان هنتون هو اول مـن عرف بدورنا في انقـلاب حسني الزعيم ، وذلك عندما رافقناه انا وميد في جولة تفقدية حول مدينة دمشق ، وما ان اخبرناه بالدور حتى صرخ قائلا :

« اودكم ان تسجلوا علـى لساني في تقاريركم الـى وزارة الخارجية ، ان بعثتنا الدبلوماسية لا يمكن ان تتورط في عمل اكثر حماقة واقل شعورا بالمسؤولية اكثر من هذا . واؤكد لكـم اننا بدأنا الان سلسلة من الاعمـال التي لا اعتقد ان يكـون لها هناك من نهاية . . »

وحول هذا كتب هنتون تقريرا بعث به مباشرة ، وبواسطة البريد العادي الى وزارة الخارجية التي ادرجته في ملفاتها وانطوى اليوم في عالم النسيان بعد ان تراكم عليه ما تراكم من غبار .

ولكن الامور ما لبثت ان تطورت في سوريا وحسب ما توقعه هنتون تماما . . فقد توالت الانقلابات وفقد كل شعور بالمسؤولية واصبحت البلاد تدور في حلقة مفرغة لا اول لها ولا نهاية . .

تجربتنا فى مصر او البحث عن قائد

في شهر شباط سنة ١٩٥٢ ، تألفت لجنة اختصاصيين برئاسة موظف كبير في المخابرات الاميركية كيرمت روزفلت ووضعت اول مشروع جدي من مشاريع « لعبة الامم » . واول ما يقوم المشروع في البدء على اساس الاعداد لثورة بيضاء يشرف فيها الملك فاروق شخصيا على تصفية النظام البرلماني القديم القائم في مصر واحلال نظام آخر جديد ، كل هذا حتى يستبعد بذلك القوى الثورية . ولا ننسى ان المخابرات الاميركية علمت بوجودها قبل سنتين وقد اصبحت الان على حافة الغليان .. واتفق انه في حال فشل هذه المحاولة ، فلا بد من البحث عن امكانيات ووسائل اخرى .. وهنا برزت مسألة ثانية هي البحث عن الشخص الواجهة ، وشريطة ان يكون هذا الشخص قويا وجميلا ، او البحث عن صيغة اخرى هي مزيج من امكانيات عديدة .

* * *

التحق روزفلت بالمخابرات الاميركية بدافع من هواية المغامرات . اما آخر العمليات التي قام بها فهي المعروفة بعملية « اجاكس » وقد تمت في آب ١٩٥٣ وكان قد نفذها بمفرده تقريبا وبعد ان تمكن من التخلص من حكم مصدق في ايران .

سبقت الثورة البيضاء في مصر سنة ١٩٥١ ــ ١٩٥٢ ، التي اسندت مهمتها الى روزفلت ، سبقت عملية اجاكس . كما ان

الملك فاروق كان معجبا بروزفلت منذ ايام الحرب العالمية الثانية وعندما كان البريطانيون يضغطون عليه بالسلاح ، وهدفهم في ذلك هو التخلص من العناصر المؤيدة للمحور واستبدالها بوجوه تختارها بريطانيا نفسها .

واول شيء فكر فيه روزفلت هو ان يجري الانقلاب على الحكم البرلماني وليس على الملك، وجاء رأيه هذا يخالف رأي السفير الاميركي في القاهرة في ذلك الوقت جيفرسن كافري والذي ارتأى ان يتم التخلص من النظام كله ، ابرلمانيا كان ام ملكيا . وبعد عدة محاولات قام بها روزفلت بالتعاون مع فاروق .. ونذكر منها قيام رجلي الحكم القويين : مرتضى المراغي وزكي عبد المتعال بخلق ازمة وزارية ، مع الايعاز الى البوليس السري بجمع الادلة ، في نفس الوقت ، لاثبات ان المراغي وعبد المتعال هما من عملاء المخابرات المركزية الاميركية وكل هذا لاستعماله ضدهما اذا ما حاولا نفيه عنهما .. وبعد ذلك تكليف نجيب الهلالي بتولي رئاسة الوزارة والقيام بعملية تنظيف واسعة المدى في الحكومة ثم نفي وطرد كبار الموظفين والمرتشين من الحكومة .. لكن هذه المحاولات لم تسفر عن نتيجة مما اضطر روزفلت الى ان يرفع يديه للسفير في ايار سنة ١٩٥٢ ، مستسلما ويرضخ الى ان الجيش هو وحده القادر على مواجهة الموقف المتدهور في مصر وان مثل هذا الحكم قادر على اقامة علاقات مع الغرب وتوفير جو من المودة والتفاهم .

وهكذا لم يكن هناك اي بحث حول ثورة شعبية او ديمقراطية ، بل كان مفهوما ، منذ البداية ، ان ادارة البلاد سيتولى الاشراف عليها الجيش ولا يتم له ذلك الا بعد ان يضمن مساندة الواعين من سكان المدن . اما بقية الانحاء فستساند الانقلاب وتدعمه بعد ان يتم .

* * *

واخيرا تم الاتفاق على ان العلاقات المقبلة بين الحكومة المصرية الجديدة التي سيتم تأليفها بعد ان يتم الانقلاب وينجح ، والحكومة الاميركية ، ان هذا الاتفاق يجب ان يقوم على اساس شعارات للاعلان فقط تنادي بوجوب عودة الحكم الديموقراطي الى مصر وقيام حكومة تمثل الشعب تمثيلا حقيقيا ، ويجب ان يفهم بصورة ضمنية وسرية ، ان الشروط اللازمة لقيام حكم ديموقراطيين في مصر لم تتوفر ، وهي لن تتوفر لسنين طويلة قادمة .. اذن فمهمة حكومة الانقلاب الجديدة هي تكمن في ان توفر هذه الشروط معتمدة لذلك الاساليب التالية :

أ ـ الغاء الامية .

ب ـ تكوين طبقة وسطى من الناس كبيرة ومستقرة .

ج ـ ان يوجد الوئام بين الحكومة والشعب وان يفهم هذا الاخير ان حكومته هذه لم يفرضها احد عليه لا الفرنسيون ولا الانكليز ولا الاتراك ، حتى ولا اشراف مصر واغنياؤها .

د ـ العمل على تكوين منظمات ديموقراطية يؤمن بها الشعب المصري ولا تكون نسخة طبق الاصل مستوردة من بريطانيا او الولايات المتحدة .

* * *

واتضح فيما بعد لممثلي روزفلت وعبد الناصر ، ان عامة الاميركيين من صحفيين وموظفين ونواب ومن رجال حكم وساسة وحتى وزير الخارجية نفسه ... اتضح لهم ان هؤلاء كانوا يعتقدون ان الديموقراطية ستعود الى البلاد باكرا وبالتالي ستقودها الى الفوضى القديمة .. اي ان الانتخابات ستجري بين مرشحين من فئات تدعمهم اميركا وبريطانيا ضد مرشحين آخرين يدعمهم الروس .. كما ان هناك ٢٤ مليون فلاحا مصريا من اصل

٢٨ مليون مصري ، سيفترعون حسب التعليمات التي تردهم من الاقطاعيين .. اما سكان المدن فيلجأون الى الاضطرابات والعنف كوسيلة وحيدة تخولهم من ممارسة النفوذ السياسي وبعد ان يلتحقوا اما بالشيوعيين او بالاخوان المسلمين على اعتبار ان هذين الحزبين هما المنفذان الوحيدان للشعب والمتصرفان بطاقاته .

* * *

« وقد اعترف عبد الناصر لروزفلت بصراحة انه هو وضباطه، وعلى الرغم من شعورهم بمرارة الهزيمة بالنسبة لاسرائيل، انهذا لا يمنع من كون النقمة الرئيسية منصبة في الدرجة الاولى على الضباط الكبار في الجيش المصري ثم على العرب الآخرين يليهم الانكليز واخيرا على الاسرائيليين .. وبعد احاديث طويلة اجراها روزفلت مع الملك فاروق ، توصل الاول الى نفس النتيجة التي توصل اليها عبد الناصر نفسه كما توصل اليها من قبله السفير الاميركي جيفرسن كافري ... »

* * *

ونصل الان الى مشكلة على قدر كبير من الاهمية والحساسية انها مشكلة القومية العربية .

يبدو لك من العسير جدا ، بالنسبة لموضوع شائك كهذا ، ان تحصل على معلومات من مصري يتمتع بمركز قيادي عسكري او مدني ، عما يفكر بشأن العرب والعروبة ، فان محاولتك هذه هي اشبه بمحاولة من يحاول الحصول من نائب بريطاني على رأيه في موضوع الهجرة . غير ان المبدأ الاول لكل من يخطط للانقلاب في بلد عربي هو : لتكن اهدافك مصرية او سورية او عراقية الخ.. انما اياك ان تجعل منها اهدافا عربية ..

وعلى الرغم من كل الاحاديث المتشعبة حول الاخوة العربية وعن « كلنا عرب » .. وغير ذلك ، فهي كلها لا تخرج عن حدودها العاطفية الضيقة .. اما فيما يتعلق بالشؤون العملية ، كالانقلابات مثلا ، فان الولاء هو الذي يحسب حسابه .. وهذا ينطبق على المصريين عامة وعلى عبد الناصر نفسه خاصة .

* * *

فعندما قام هذا بثورته كمصري ما لبث ان اقترب من الزعامة العربية ، واخذت كلمة العرب تدخل في الاستعمال .. كما ان عبد الناصر ، قبل الانقلاب ، لم يكن يعرف الكثير عن العرب ، حتى هو نفسه لم يكن عربيا . ولم يزر حتى ذلك الحين اي بلد عربي ولا التقى باي شعب عربي .. وان ما كان يعرفه عن العرب لم يحرك فيه محبته لهم .. وفي عام ١٩٥٢ ، قام بزيارة بعض البلدان العربية انما في ظروف لم تسمح له بان يعرف الكثير عنهم .. ولم تفعل هذه الزيارات شيئا سوى انها اكدت شكوكه السابقة بالعرب .. فالعراقيون في نظره متوحشون واللبنانيون مرتشون ومنحلون واليمنيون اغبياء متخلفون والسوريون غشاشون .. فلا هم يشعرون بالمسؤولية ولا يوثق بهم ..

* * *

ومن الواجب التأكيد هنا ان عبد الناصر ينكر الان انه كانت له مثل هذه المواقف ويستحيل اعترافه بها .. وانه توصل الى خلق شيء في العالم اسمه « الوطن العربي » ـ او ـ العالم العربي ـ وان هناك طبقات مختلفة في امور كثيرة هي طبقة من السوريين واللبنانيين والعراقيين والاردنيين واليمنيين .. الخ .. وان هذه الطبقات كلها تهتف له كلما تكلم وتصفق عندما يظهر على شاشة التلفزيون . كما يجدر التأكيد هنا الى ان معاونيه الذين ساعدوه

على القيام بالثورة ، ويعود اليهم فضل كبير في استمراره في سدة الحكم ، نراهم لا يشاركونه في نشاطه العربي انما يسايرونه في مواقفه العربية وضمن الابعاد التي تخدم الاغراض المصرية الخالصة فكلما حدثت مشاكل في قلب مصر ازداد عبد الناصر تعصبا لمصريته وقل حماسه لعروبته ..

وعندما يتحدث الى مستشاريه المقربين ، نراه يبحث في الدرجة الاولى مصلحة مصر قبل كل شيء .. معتبرا ان بقية مشاكل البلاد العربية هي امور ثانوية .

* * *

نضيف الى هذه النقاط امورا كثيرة منها :

ـ عدم اهتمامه بموضوع استعادة فلسطين .

ـ عدم علاقة القومية العربية بالثورة المصرية .

ان جميع ما ذكرناه يستحق ان يذكر بسبب ما دار حوله من جدل وما احيط به من سؤ فهم وما ادى اليه من اخطاء كثيرة ارتكبناها في تعاملنا مع عبد الناصر . واشير هنا الى الحقيقة الاساسية التي استخلصها كيرميت روزفلت من احاديثه مع ضباط عبد الناصر هي قوة كراهيتهم للمركز الذي يتمتع به الانكليز في مصر .. قوعن هؤلاء قال عبد الناصر : « بتنا نشعر ازاءهم اننا مواطنون ولكن من الدرجة الثانية .. »

كما كان هذا هو الموضوع الذي دارت الاحاديث عنه بين عميل المخابرات الاميركية كيرميت روزفلت والضباط الاحرار قبل شهرين من انقلاب تموز عام ١٩٥٢ .

* * *

ويوم عاد روزفلت الى واشنطن قدم الى وزير الخارجية الاميركية آنذاك ، دين اجيسون ، قدم له تقريرا مفصلا وردت فيه نقاط عديدة اهمها :

١ ـ لم تعد الثورة الشعبية التي كانت تخشاها الخارجية الاميركية ويسعى اليها الشيوعيون يساندهم الاخوان المسلمون ، لم تعد هذه الثورة ذات موضوع .

٢ ـ ان الجيش سيقوم بالانقلاب شئنا ام ابينا وان مخاوف المخططين في وزارتنا قد تلاشت .

٣ ـ ان مبررات الضباط لاحداث الانقلاب قوية وان النجاح سيكون حليفهم دون شك .. كما انه سيجعل منهم ساسة ومفاوضين مرنين بعد ان يتبوأوا مراكز السلطة .

٤ ـ يجب على الحكومة الاميركية ان توافق على اقصاء الملك فاروق ومن المستحسن ان تضع حدا لنهاية الملكية في مصر.. ولتحقيق هذا يجب ارسال نوع من الاحتجاج الرقيق الى السفير كافري يظهر فيه قلق اميركا على سلامة فاروق ..

٥ ـ على الحكومة الاميركية الا تعيق تطور الانقلاب كأن تحاول اقناع الضباط باجراء انتخابات او اقامة حكم دستوري او غير ذلك .. انما عليها ان توطد العلاقات مع الحكم الجديد لان الحياة الديموقراطية في العهد الجديد يجب ان يتم بناؤها ابتداء من درجة الصفر .

٦ ـ يجب الا ينسب الينا شيء في الانقلاب والا يفكر احد

من رجالنا ان لنا في القضية دور ضليـــع .. انما يكـون الانقلاب داخليا بحتا وانه متحرر جزئيا من نفوذنا .. وان العدو الوحيد الذي يجب ان تجمع الآراء على كراهيته هو الطبقة الغنية في مصر وليست اسرائيل .. ويليهم بعد ذلك ، مباشرة ، الانكليز .

كان يجب ان يتم هذا اردناه ام لم نرده ..

ناصر .. حليفنا المستقل

قررنا ان يكون للاعب الجديد الذي سنأتي به

اهدافـه وسياسته الخاصـة بـه ..

كان التقرير الذي تحدثنا عنـه في الفصل السابـق والذي رفعه العميل كيرميت روزفلت الى مجلس الكونغرس الاميركي عن النشاط الذي قام به في مصر ، قد كتب بطريقة لبقة لا تثير الذعر او تدعـو الى الحيرة والقلق بـين اعضاء لجنة الابحاث التابعـة للمجلس الآنف الذكر . كما ان هـذا التقريـر لم يشمل الشروح الواضحة للجهود التي بذلناها حتى تمكننا من ايجاد زعيم متعطش للسلطة ، من طراز بونابرت ، وقادر على جمع شعبه حول قضية تتجسد فيها الآمال والمخاوف . واتسمت تقارير روزفلت الشفهية بشيء من الصراحة ، اذ انه لم يكن ينتظر من السياسيين السريين الاميركيين ان يحرضوه او يلهبوا حماسه .. ويمكن ان نستخلص شيئا واحـدا من اجتماعاته المتكررة في مصر .. وهو ان احدهم هناك ــ في مصر ــ ومن ذوي الاتصال الوثيـق بالضباط الذيـن اجتمع اليهم روزفلت ، قد وضع في حوزته التخطيطات التي تمكنه من الاستيلاء على السلطة في مصر .

وفي حوزة ذلك الشخص ، ايضا ، ما يكفل له الاستمرار في سدة الحكم مدة طويلة الامـد . واشار روزفلت مؤكدا صحـة معلوماته وانه قد ابلغ جميع ما لديه من ملاحظات الى ذلك الشخص المشار اليه وشدد على ايجاد صيغة تفاهم متبادل حين تدعو الحاجة

الى ذلــك .. ومن المؤكد ان هــذا الشخص سيفهــم مــا نريــد بالضبط .. كما انه سيفهم اننا على استعداد لان ندفــع المبالغ الطائلة في سبيل تحقيق ما نريد .. وقال روزفلت في نهاية تقريره الشفهي ، ان المعلومات التي حصل عليها من الضباط الذين اجتمع اليهم تؤكد له ان عروضه باتت مقبولة ولا تقبل النقض ابدا .

ولكن حكومتنا لم تعلم بالانقلاب الا يوم قرأته في الصحف اي يوم حدوثه ، في صباح ٢٣ تموز ١٩٥٢ ، ونشير هنا الى موجة التقارير الصادرة عن المخابرات المركزية الاميركية والى ان هــذه التقارير لم تستطع تحديد الوقت ورصد التحركات رغم اشارتها الى ان شيئا هاما سيحدث في مصر . قبل الشعب المصري الانقلاب الابيض وايدته جميع الصحف قاطبة .. ولم يأسف احد على خلع الملك فاروق وذهابه ولم تصدر البلاغات الرنانة ، الطنانة ، والتي اعتدنا سماعها من اذاعة دمشق بعد كل انقلاب يقوم فيهــا .. بل استمعنا الى وعود صادقة تدعو الى تطهير البلاد من الغش والرشوة والفســاد .. والعمل على اقامــة حكــم قادر وقوي فعال .. ثم اصلاح الاحزاب السياسية من جذورها . والغريب في الموضوع ان بلاغا واحدا من كل ما سمعناه لم يتعرض الــى ذكر اسرائيل من قريب او بعيد .

لم تطلع السفارة الاميركية في القاهرة علــى اخبار الانقلاب في حينه .. ومرد ذلك الى كون السفارة مغلقة ليلا ولا تستطيع ان تنسب هذا الى عبد الناصر وبالتالي نعــده تأخيرا وتقصيرا منه .. وجاء علي صبري ــ والذي اصبــح فيما بعــد من الد اعدائنــا ــ جاء الى السفير كافري وقدم لــه تقريرا مفصلا عما حدث في الليلة التي سبقت الانقلاب المصري الابيض ... واكد له ان حكومة الانقلاب الجديد تسعى جاهدة لاقامة اطيب العلاقات مع الولايات المتحــدة الاميركية . حتى ان محمــد نجيب نفسه اكد

الشيء ذاتـه ـ يجب الا ننسى ان محمـد نجيب يعتبـر الرأس الانقلابي الاول ـ وقد اكد لنـا ان « القضية الفلسطينية مسألة ثانوية ولا تعني شيئا بالنسبة له » .

* * *

وبعـد ساعات كان يقـوم بزيارة الى السفير الاميركـي ، كافري ، يطلب اليه الا يذيع البيان الذي صدر عنه وان يذاع اي شيء آخر بدلا منه يكون اقل وقعا علـى مسامع شعب الولايات المتحدة الاميركية ويتوافق ، من حيث الانسجام ، مع الاسس التي كنا نوافق عبد الناصر عليهـا ونعتبرها ضرورية لكي يكسب قادة الانقلاب الجديد تأييد الشعب المصري وتمر الازمة بسلام .

بدأ كل شيء يشير ، الان ، الى انه كسبنا لاعبا جديدا في الحلقة وانه يتمتع بالصفات التي كنا نسعى اليهـا كما ان اللعبة التي سنقوم بها واياه ستنال نسبة عالية من التعاون الوثيق فيما بيننا .. وسيكون الخـلاف ، ان وجد ، ضئيلا جدا .. وسرت ادارة المخابرات المركزية العامة في واشنطون ، سرت جدا من هذا النصر الذي احرزناه .

* * *

امـا ضابطنا العميل الآخر ، وليم ليكلاند ، وكـان ضابط الارتباط السياسي في السفارة الاميركية في القاهـرة ، فكان يعلم جيدا ان محمد نجيب ليس سوى واجهة لعبد الناصر .. كما ان محمد حسنين هيكل هو نفسه الذي عمل علـى انجـاح اللقاءات المتعددة بين الضابط العميل ليكلاند والضباط المصريين الاحرار..

وقـد تم ذلك ـ بالطبع ـ قبل الانقـلاب .. ومن بين الضباط الاحرار كـان عبد الناصر نفسـه واستمر هـذا الضابط ـ اي ليكلاند ـ يستقبلهم ، بعد الانقـلاب ، في شقته المطلـة علـى نهر النيـل ، طيلة اشهر عديـدة .. والمضحك في الامر ـ اذا شئنا القول ـ ان الجماهير المصرية كـانت تهتف لمحمد نجيب وكذلك العالم الخارجي ، اما السفارة المصرية فقد ربطت جميـع علاقاتها مع عبد الناصر ، ومن خلال ليكلاند ، لان عبد الناصر كان الرجل الوحيد القادر على اتخاذ القرارات الحاسمة .

* * *

ولم ينس السفير الاميركي كافري ان يكثر مـن الزيارات الروتينية لمحمـد نجيب ويسلمه الرسائل الواردة مـن واشنطن والتي كانت حكومتنا تخشى ضياعها على الطريق .. ولكن الحوار الحقيقي بين الحكومتين المصرية والاميركية كـان يدار مـع ناصر وبواسطة ليكلاند وبصورة ادق بين ليكلاند وهيكل . وقد اتصف هيكل بالمرونة والحذاقة فكان يتسلل بالتدرج الى صلب الاتصالات الجارية بيننا وبين عبد الناصر وكان هيكل قادرا على طلي وجهات نظر عبد الناصر بالحلوى ، قبل ان ينقلها الى السفارة الاميركية.. وهكذا كان يفعل عندما يطلب اليه ان ينقـل وجهات نظر السفارة الاميركية في القاهرة الى عبد الناصر نفسه .

ومـا ان انتهى الانقـلاب حتى توقف الضابط ليكلاند عـن الاتصال بالضباط الاحرار ، وكذلك فعلت لجنته ، فقـد توقفوا جميعا عن الاتصال بعبد الناصر ، واكتفوا بمراقبة تطور الاحداث من بعيد .. ونعزو ذلك الى سببين هامين :

أ ـ ابعاد الشبهة عن تواطئنا مع النظام الجديد .

ب ــ تطور الامور بصورة طبيعية لا تدعو الى القلق والمخاوف ..

* * *

ومما زاد ثقتنا في حسن سير الامور هو ان جميع الذين كانوا يهتمون بشؤون المنطقة رغبوا في ان يترك الوقت لحكومة الانقلاب كي تحل مشاكل البلاد على طريقتها الخاصة .. وانهم لا يرون الاسباب التي تبرر الكشف عن القوى الحقيقية التي يتستر خلفها عبد الناصر ويمثل واجهتها محمد نجيب ، احد الضباط الاحرار وان الانقلاب ، كما سبق لنا القول .

لم يستمر الوضع هكذا ، انما تغير في زمن الرئيس ايزنهاور . فقد اراد الرئيس الجديد ان ندرس هذا اللاعب الجديد بدقة ونتعرف الى هويته الحقيقية واذا ما كان ، فعلا ، يتفق ويعمل ويتحرك حسب توقعاتنا وخاصة التأكد من ان تحركاته ستؤمن لنا النصر على اخصامنا عندما ننهمك معهم في الصراع .. ولكي تكون اللعبة هي لعبة تعاون وثيق ومتكامل بقدر الامكان .

* * *

بعد ان ابدى الرئيس ايزنهاور رغبته التامة في دراسة هوية « لاعبنا الجديد » واشترط ان تكون الدراسة تامة ووافية، سافر وزير الخارجية الاميركية ، آنذاك ، جون فوستر دالس الى الشرق الاوسط في ايار سنة ١٩٥٣ ، وصرح قبل سفره بما يلي : « حان لنا الوقت لنتعرف الى هوية هؤلاء الاولاد ومدى ما يذهبون

اليه » .. كما امر دالس العميل روزفلت بان يرسل الى القاهرة شخصية عسكرية تكون من نوعية رجال الثورة الحاكمين في مصر لتقيمهم وتدرس اوضاعهم .. واختار روزفلت لهذه المهمة العميل « ستيفن ميد » ، بعد ان احضره من زاوية النسيان ، وكان يعمل كمساعد ومنجد للعلماء الالمان المعتقلين في الصين الشيوعية . الا ان عدم خبرة روزفلت بشؤون الضباط في الجيوش العربية الحديثة ، جعلته يعتقد بان ستيفن ميد وماضيه المملوء بالمغامرات التجسسية سيترك الانطباع الحسن في نفوس الضباط الاحرار .. وقد كان مصيبا ، الى حد ما ، في رأيه هذا . فقد قضى ميد اسابيع عديدة في مصر ،قبل ان يزورها دالس ، جعلته مقبولا لدى الضباط الاحرار ، لان في مظهره صفة الابطال الذين نراهم في الافلام الاميركية .

وكان ميد يشبه ، في صفاته ، احد المظليين العاديين المتسمين بالتواضع . وتم ادخاله في جهاز المخابرات الاميركية نتيجة خطأ ارتكبه الجهاز الالكتروني الذي قضى بفرزه الى المخابرات مع احتمال نزوله في مظلة فوق الارض السوفياتية بدلا من ان يرسل الى جبهة القتال . اما مقدرته الخارقة فكانت تكمن في سهولة تعلمه اللغات الصعبة ومن بينها اللغة العربية . وكان سلوكه مشابها لسلوك الضباط في اي جيش ، وبما في ذلك الجيش المصري . وساعده ماضيه الحافل بالمغامرات على اشتراكه في محادثات شيقة مع الضباط المصريين في اجتماعاتهم الليلية ...

اثار اختيار ميد عبد الناصر ورأى في تعيينه لهذه المهمة ان وزير الخارجية الاميركيه ينظر الى الثورة المصرية على انها انقلاب لا يختلف عن الانقلابات التي تجري في اميركا الجنوبية » .

* * *

كان ميد ، في نظر حكومته ، يمتاز ، كذلك ، بقدرته الخارقة على معرفة الناس ، وتحليل دوافعهم واغراضهم .. مع انه يبقى بعيدا عن التدخل في امورهم السياسية . وعلى الرغم من الصداقة التي كانت تجمعه الى ضباط كثيرين في بلدان اخرى ــ نذكر منهم اديب الشيشكلي في سوريا ــ فان ذلك لم يترك الشكوك الخطيرة حول احتمال قيامه باية محاولة تؤثر في مجرى الثورة المصرية ولم يقم بمحاولة كهذه على الاطلاق .

سجل ستيفن ميد معلومات كثيرة عن الضباط الاحرار وما لبث التاريخ ان اثبت صحتها .. وقال فيها انها لا تنطبق فقط على عبد الناصر ونخبته المختارة ، انما تصح ان تطلق على اية نخبة عسكرية اخرى في بلدان غير عربية ، كفيتنام وافريقيا الغربية واليونان ...

وذات يوم قال روزفلت لوزير الخارجية فوستر دالس في حديث عام له عن هذه البلدان .. اننا لا نستطيع ان نصنع ثورة بدون ثوار .. وورد في بيان كروزيه : ان الناس لا يثورون بسبب سوء احوالهم المعاشية ، انما الثورة هي التي تصنع الثورة .. ولكن ميد اخذ يعتقد العكس بعد اجتماعاته العديدة الى الضباط المصريين الاحرار .

فهو يرى ان الانقلابات فشلت في سوريا وان انقلابات اخرى اعقبتها وفشلت كلها لان الثوار في سوريا كانوا اكثر من اللازم .. اما استمرار انقلاب مصر ونجاحه فهو يعود الى نتيجة جهود عبد الناصر وسلوكه ...

وكتب ميد الى روزفلت يقول : « يرى هؤلاء الصبية انفسهم

اشبه بافراد عصابة روبن هود المرحة ، فهم مسروروں لانهم اعلنوا ابطالا وقادة للثورة ، ولكني لم اجد واحدا منهم بامكانهم ان يشرح لي ما تريده هذه الثورة وماذا تهدف اليه ، فهم ، بالاجمال ، لا يكترثون للسياسة ، وقد يكون هذا من حظ عبد الناصر وحظنا معا . فهم يحتاجون الى من يرشدهم ويقول لهم ماذا وكيف يفكرون ويعملون ، ولا اجد هناك اية صعوبة في العودة بهم الى ثكناتهم » .

ومر ميد باوقات حرجة قلقة . اذ ان بعد وصوله باربعة او خمسة ايام الى القاهرة ، حاول الضباط الاحرار ان يقنعوا عبد الناصر بان ينصب امام قصر عابدين صفا من المشانق مع سرادق خشبي يتسع لمئات المشاهدين من اجل تنفيذ احكام الاعدام باعداء الثورة . وما كان من عبد الناصر الا ان ثار وقال : « لا اريد ان اسمع هذا الموضوع مرة اخرى » .

لم يذعن الضباط لقول عبد الناصر بل استمروا في ترويد اقوالهم على بعضهم مما ادى الى تسربها الى الرأي العام . ولم يكن هذا الحادث فريدا من نوعه . . انما تلته حوادث شبيهة اخرى، مما جعل المراقبين يعتقدون بان الموقف قد يفلت من يد عبد الناصر وهكذا تتحول مصر الى سوريا ثانية ، وكان هذا رأي ميد في البداية ، انما عاد واطمأن في النهاية بان مثل هذه الحوادث طبيعية بالنسبة للمرحلة الاولى التي تلي الانقلابات ولا تدعو الى القلق ، وشبهها بالحالة التي مر فيها الجيش الفرنسي يوم غادرت الجيوش الالمانية فرنسا .

* * *

كان جميع الضباط الذين اختارهم عبد الناصر للقيام بعملية

الانقلاب رزينين ومن اصحاب المراكز الحساسة ، فلم يحدث اي اضطراب في نظام الجيش انما جاء الانقلاب يعززها ويقويها . غير ان الصعوبة الوحيدة التي تعرض لها هي في انه لم يستطع ان يضع نفسه في المكان المناسب يوم تم الانقلاب ، ويعود هذا الى رتبته العسكرية .. ولتذليل مثل هذه الصعوبة ، استخدم محمد نجيب لحلها .

شغل الجنرال كابل منصب نائب رئيس المخابرات المركزية ، ويوم زار مصر اجتمع اليه عبد الناصر وشرح له عملية الانقلاب وما رافقها من صعوبات ومضاعفات وكيف ان احدا من الضباط عجز عن الاستيلاء على مراكز المواصلات .. فقد كان يشاهد فيلما سينمائيا عندما اوكلت اليه اوامر هذه المهمة .. وكيف ان خطأ في اشارة الضوء جعل شرطيا يوقف سيارة عبد الناصر نفسه بينما هذا الاخير منطلقا لحضور اجتماع هام . كما ان اخبار الانقلاب تسربت قليلا الى الملك فاروق فقد شعرت والدة احد الضباط بمغادرة ابنها المنزل في ساعة متأخرة من الليل وبطريقة غير طبيعية فاتصلت بالشرطة تبلغها مخافة ان يكون ابنها قد تعرض لحادث ما .

بعد هذا عاد عبد الناصر يشرح للجنرال كابل الطرق التي يجب اتباعها لنجاح الانقلاب العسكري وحمايته وشرح له مطولا افكاره بالذات حول كل ذلك .

وما ان تم الانقلاب حتى بدأ الناس يطلقون على اتباع عبد الناصر اشاعات منها : « انهم رجال زكريا » ، او « رجال البغدادي » .. فمعنى هذا ان الضباط لا يكنون الولاء لعبد الناصر الا عن طريق ولائهم لاحد هؤلاء الاشخاص ، ومن الطبيعي ان يفكر عبد الناصر في الغاء ذلك ، وهكذا فعل ، الا ان الطريقة التي اتبعها

لم تؤد الى ابعاد اعوانه المقربين .. فمثل هؤلاء كان بحاجة ماسة اليهم لتنفيذ الانقلاب والعمل على انجاحه .

* * *

وكان من عبد الناصر ان وزع اولئـك في مناصب لا يقومون فيها باي عمل ولا تدع لهم فرصة للتفكير بالعمل السياسي وتعاطيه ، اما الآخرون الذين كانوا من اصحاب المواهب فقد عـرف كيف يستخدمهم .. وابعد ناصر كل من يدينون له بالـولاء الشخصي ابعدهم عن القاهرة ووضعهم في مراكز نائية .. والجدير بالذكر ان ستيفن ميد طلب الى حسني الزعيم ان يفعل نفس الشيء ولكن هذا الاخير رفض ولم يستجب لطلبات العميل .. الذي يعتقد ان الفن الناصري .. في مواضيع كهذه ، يجب ان يعتمد كأساس لعقـد الانقلاب وانجاحه .

وعرف ميد ، في سوريا ، كيف يأتي الزعيم الى السلطة ، عن طريق الانقلاب اذا ما نفذ بدقة ، ثم قام بعد ذلك بدراسة الاخطاء الممكنة .. ولكن ميد شاهد في مصر كيف نجح ناصر بالانقلاب ثم الف حكومة جديدة قوية تتصف بالمناعة ضد اي انقلاب كان .. وسبب ذلك هو ان عبد الناصر يعتقد ان توطيـد مركزه يجب ان يوضع في الاعتبار الاول وان يقـدم هذا الموقف علـى اي موقف آخر .. وقد اضطره سعيه وراء هذا الهدف الى القيـام باعمال كانت تزعج المراقبين الغربيين ومثال علـى ذلك هو سماحه بتردي بعض المواقف كي تسيء الى العلاقات بين مصر والسودان وهكذا تمكن من القاء اللوم والتبعة والمسؤولية على احد اتباعه الذي كان نفوذه آخذا في الازدياد ويعتبر خطرا عليه .. ففي رأي ميد ، ان عملا كهذا ، او سلوكا ، يعتبر ضروريا بالنسبة لـه ، ولا لزوم

كي ننزعج منها نحن الاميركيون .

* * *

هدف عبد الناصر من انقلابه الى انشاء طبقة خاصة تعرف بالطبقة الطبيعية او الطبقة المختارة وعلى هـذا كله كانت تقتصر وجهة نظره .. وان الذي اطلعنا على وجهات النظر هذه هما هيكل وليكلاند في حواراتهما المستمرة وليس عميلنا الاخر ستيفن ميد . ومما لا شك فيه ان هذا ازعج عملاءنا ما فيـه الكفايـة . ونظر عبد الناصر الى النخبة الطبيعية او الطبقة الطبيعية علـى اساس انها هي التي تتمتع بنفوذ وامتيازات نظرا لما تتمتع به من كفاءات عالية .. يضاف الى ذلك ايمان الشعب بها على اساس انها تمثله وتخصه .. فهي منـه واليه .. ويرى عبد الناصر ان مثل هـذه النخبة موجودة في المجتمعات الراقية والمستقرة ، بما فيها المجتمع السوفياتي .

كانت هذه كلها وجهات وآراء عبد الناصر . ويشك ناصر ، في نفس الوقت ، في قدرة شعبه على تقييم الكفاءات والتعرف الى ما يمثله تمثيلا حقيقيا لا مخاتلة فيه ولا مراوغة . وهذا ما دفعه الى التفكير بالنخبة العسكرية مع انه كان يؤمن ، تماما ، بوجوب انفصال الجيش عن السياسة وابتعاده عنهـا . ولاحظنا ان هذه الفكرة ، من اساسها ، تزعج عبد الناصر ، ليس لانهـا تبعده عن مسرح لعبتنا واياه بل على العكس تقربه منا ، انما الخوف يكمن في صعوبات ربما خلقتهـا علـى الجبهة الاميركية .. وهنا اذكر ان تسامحنا ومساندتنا لبعض الاحكـام الديكتاتوريـة نسب الينـا مساندتنا للثورات اليمينية وخاصة في عهـد الرئيس ايزنهاور ، ونحن لم نفعل هذا ، لا ايمانا منا بان الرجوع الى الحكم البرلماني من شأنه ان يوطد النظام ويقويه .

* * *

ان اكثر ما كان يزعجنا هو التردد الذي لمسناه عند عبدالناصر في العمل على البناء الاجتماعي الذي كان يأمله ويرجوه لمصر وقد طلب ان يمنح الوقت الكافي للتفكير والاعدادوالتخطيط .. واراد، أيضا ، ان يمنح الشعب المصري نفس المدة ، وهذا معناه تطوير القدرة على التفكير البناء عند المصريين وتعرفهم الى حقيقة ما يريدون .

قال عبدالناصر للسفير الاميركي في حوار جرى بينهما : « ان اعطاء المصريين حريتهم بسرعة هو اشبه من يترك اطفالا يلعبون في الشارع ويتعرضون لاخطاره » .

واعتقد ناصر ان البلاد اذا ما اعطيت الحرية ، وعلى طريقة الغرب ، فهي لا محالة آيلة الى التدهور والخراب وانها ستتحول في الحال الى ساحة قتال تكون الغلبة فيها للمرتزقة والعصابات على مختلف انواعها .

معنى هذا ان عبدالناصر كان يريد العمل بمفرده لمدةطويلة دون ان يزعجه الرأي العام .

***

والحقيقة هي ان عبدالناصر كان يتطلع ويأمل بانشاءمجتمع تسوده فئة مختارة ترأسها طبقة معينة ومتفوقة من جميعالنواحي ومذهبه في هذا الاعتقاد هو الجمع بين طبقتين متصارعتين .. فيصادق واحدة ويعادي اخرى .

انما كل هذه الاعتبارات قاطبة لم تزعج عميلنا ستيفن ميد ،

الخبير بشؤون الانقلابات وصناعتها .

وحول هذا كتب ستيفن ميد تقريرا الى رؤوسائه في مركز المخابرات ، جاء فيه ان ما يرمي اليه عبدالناصر من تقييد في اركان القيادة ربما هو تنصيب ديكتاتورية عسكرية فاشستية.. وعندما علم روزفلت بالامر استدعى السفير كافري في القاهرة واتفق معه على ارسال عميل آخر ، من البارزين في حقول السياسة وصاحب تقارير رسمية يؤخذ بمضمونها وتختص بالانظمة العسكرية في البلدان المتخلفة . كان الشخص هو (ايغلبر غر).. وظن روزفلت ان هذا الشخص قادر على دراسة الموقف كما اقترح منح مساعدات عسكرية لمصر وان ايغلبرغر سيتمكن من تقديم تقرير مفصل الى وزير الخارجية فوستر دالس ويقنع عبد الناصر بتعديل افكاره . وبدأ ايغلبرغر يعمل تحت امرة كافري وبمعزل عن جهاز السفارة انما كان يطلع على جميع التقارير الواردة اليها ومنها وخاصة بواسطة موظفيها وموظفي المخابرات المركزية.

***

اجتمع ايغلبرغر مطولا الى اعوان عبدالناصر السياسيين والعسكريين كما اجتمع الى الصحفي محمد حسنين هيكل الذي قيل انه هو واضع كتاب « فلسفة الثورة » وليس عبد الناصر . وتحدث ايضا الى رئيس هيكل آنذاك ، مصطفى امين، احد الصحفيين الاذكياء والمعجبين جدا بعبدالناصر ، انما كان هيكل يفوقه اعجابا . كما تحدث الى صلاح سالم وزير الارشاد القومي في ذلك الوقت والى الكثيرين ممن ادخلهم سالم الى وزارته وقد جاء بهم من الجامعات والاحزاب السياسية والاتحادات العمالية. ثم تحدث ايغلبرغر الى عبدالناصر نفسه في مواضيع شتى ولم

يوافقه على فكرة ابعاد المعاونين والسياسيين الذين كانوا يعملون تحت امرته . وتجمعت عن المحادثات سلسلة من التقارير ترجم بعضها الى العربية وقدم الى ناصر وتضمن التقرير المترجم آراء ايغلبرغر في المصاعب التي تواجه الحكومة وما هي السبل التي يجب اتباعها لتذليل العقبات .

وهناك تقرير آخر اهم من التقرير الاول ، يتحدث عن مشاكل الحكم في الحكومة الثورية .. اضيفت اليه تعليقات من اعضاء يعملون في مكتب عبدالناصر ثم ترجم واعيدت ترجمته الى الانكليزية بعد التعليقات بالعربية ، كي يلقي عليه العميل ايغلبرغر نظرة أخيرة ويعلق عليه .

وهكذا استمر التقرير يترجم فترة من الانكليزية الى العربية والعكس بالعكس .. واخيرا توصلوا الى وضع صيغة نهائية له .. فعرضت على العالم الخارجي على انها من وضع زكريا محي الدين، اشد المقربين من الرئيس عبدالناصر واقوى اعوانه .. يتضمن التقرير ، بالاضافة الى الافكار الفلسفية ، الطريقة التي كان ناصر ينظر منها الى اعمال القمع والتأييد الشعبي ، ولا ننسى ما للتقرير من اهمية في هذه الناحية .

طلب كافري الى ايغلبرغر ان يراقب بجدية مسرح الثورة المصرية وسياستها وان يجد رجال الثورة انفسهم فائدة في تلك المراقبة .. والذي دعاه الى طلب ذلك هو انه شك فيما ورد من تقارير من ستيفن ميد الذي كان يجزم بان حكومة الرئيس عبدالناصر لا يمكن ان تتعرض لاخطار ناجمة عن فشل الانقلاب مثلا . واعتقد ميد انه ما ان تمر سنة واحدة على الانقلاب حتى تتعرض الثورة لخطر الثورة المضادة ، وذلك يتأتى من افراد لهم مصالح في النظام

السياسي القديم ، او انهم تعرضوا لا ضطهاد النظام الجديد . . ومن هؤلاء نعطي الشيوعيين كمثل فهم الذين تظاهروا بتأييد عبد الناصر ولكنهم ظلوا يتحينون الفرصة ان تؤاتيهم لتحقيق اهدافهم .

ويتحدث ايغلبرغر عن الاخطار التي كانت تهدد نظام عبدالناصر ، فيذكر ، اول ما يذكر ، ماكان ضباطه يسعون اليه من شعبية وحظوة لدى الرأي العام .

وسنقرأ الان ما كتبه ايغلبرغر عن هذه الحقيقة بالذات :

« يبدو لي ، بالذات ، ان ناصر شخصية غير واضحة . . وهناك انطباع غريب لا استطيع تحديده بالضبط عندما اتحدث الى الاخوين صلاح وجمال سالم والى آخرين غيرهم من ضباط مجلس الثورة . وفي رأيي ان هذا يدل على انهم يباشرون ما نسميه بسياسة الانجراف والمخاطرة ، كما انهم لا يبقون بقدرتهم على القمع ولانهم يشعرون ان باستطاعتهم السيطرة على اجهزة الحكومة ، فكل ما يطمعون اليه هو الشعبية وهذه الناحية تثير ازمة نفسية دائمة في ادارة شؤون السلطة .

***

ويتابع ايغلبرغر سرد تقريره فيقول :

اما اذا حاول صاحب السلطة توطيد حكمه بارضاء فئة حينا وفئة ثانية حينا آخر ، فالنتيجة هي ان الاهداف الاساسية ستوضع جانبا ، ولن يمضي وقت طويل قبل ان يعلم الجميع

انهم قد افلسوا فكريا وان الانجراف او المخاطرة باتا في عالم النسيان . وعند ذلك نراهم يعودون الى العمل بسلطة القمع التي يتحدث عنها عبدالناصر كثيرا .. وكل هذا يؤدي ، فينهايته، الى ما يعرف بالطغيان البشع .

***

ولكن ايغلبرغر اخطأ في تقدير ناصر وفهمه جيدا ، فهذا الاخير كان يعرف جيدا الطبيعة المراوغة للشعبية المجردة وهذا ما دفعه الى الاستناد الى سلطة اساسية تقوم على حمايته .. ولا شك انه ، على عمر السنين ، شعر بالحاجة الى الاضطهاد وان كانت شعبية قد بلغت ذروتها .

قال عبدالناصر في حديث له مع احد الدبلوماسيينالاجانب في آخر ايار عام ١٩٦٧ : نستطيع ان تحكم مصر بطريقة تشبه طريقة الاب دوفاليه في حكمه لجزيرة هايتي .. وطبعا لن نقدم على ذلك ما لم نحتج اليه ولا نظن ان الامور ستتطور الى انتبلغ ذلك المدى .

كان الخطر في الدرجة الاولى ناجما عن تردد عبد الناصر فيما يريد انجازه وليس عن شكه في الانجاز وطرقه . ولم يـر المراقبون بوضوح انه بامكانه القيام بذلك مالم يلجأ الىالديكتاتورية العسكرية مبتعدا عن الحكم البرلماني وانـه ربما حكم كنابليون اي بتفويض من الشعب يحصل عليه بواسطة الاستفتاء.

ان ما يهمنا من كل ذلك ، نحن المخابرات الاميركية هو أن يندمج اللاعب ويتفق والخصائص التي حددناها له .. فالـذي

يقوم به على صعيد السياسة الداخلية هو من شأنه هو ..مازالت سياسته الخارجية لا تعرض مصالحنا للخطر .

***

وبامكاننا ان ندافع عن عبدالناصر بصرف النظر عن جميع اهدافه والطرق التي يعمل بواسطتها : ولا انسى ما قاله لنا بالحرف الواحد : اذا كانت الطريقة التي اعمل بها لا تعجبكم ولكم مآخذ عليها ، فالجدير بكم ان ترشدوني الى طريق آخر افضل وسأصغي اليكم .. كما اننا لم نحاول ، ولو مرة واحدة ، ان نختبر مدى اخلاص عبدالناصر لنا .. لانه كان يعمل دائمابطريقة سليمة لا نظن ان اساليبنا الخاصة افضل منها ..

عبد الناصر والحياد الايجابي

لم يكن الحياد الايجابي هو حرية اتخاذ القرارات بالنسبة لعبد الناصر فحسب ، انما اعتبره استراتيجية مهمة . وقد قام بيتر مانسفيلد باعداد قائمة بالقروض التي حصل عليها عبد الناصر وهي قائمة اكد اصدقائي في وزارة الخارجية الاميركية انها دقيقة جدا ، وجاء في اللائحة ان الرئيس عبد الناصر حصل على قروض مختلفة بلغت ١٣١١ دولار ، موزعة على الشكل التالي : ٤٨٣ مليون من الدول الشرقية ، و ٧٧٢ مليون من الولايات المتحدة والمانيا الغربية وايطاليا واليابان وبريطانيا وهولندا وسويسرا والسويد . وقد بلغ ما دفعته اميركا وحدها ، واكبر من جميع الدول الشرقية ، بلغ ٥٣٥ مليون و ٦٠٠ الف من الدولارات .

هذا بالنسبة للارقام النقدية اما المساعدات الفنية فهي كثيرة جدا ومنها منح التجهيزات الصناعية والهبات الغذائية وقيمة الاسلحة السوفياتية البالغة ٥٠٠ مليون دولار . ولم يفكر عبد الناصر ، يوما ، بانه سينال مثل هذه المعونات لو انه التزم جانب احد المعسكرين ، ونفذ ما كان سبق وطلبه اليه وزير خارجيتنا جون فوستر دالس ..

وايضاحا للحقيقة لا بد لي منالقول انه لو التزم ناصر بنا

لكان ذلك سيؤدي به الى ان يحصل منا ، ومن بريطانيا ، على اربعين او خمسين مليون من الدولارات سنويا فقط .. ودون ان يحصل على شيء من السوفيات ومعنى هذا انه سيبقى بدون اية مساعدة عسكرية ولا ننسى ان هذه ضرورية لبقائه واستمراره في السلطة وهكذا يكون الطريق الذي اختاره عبد الناصر قد عاد عليه بعشرات الاضعاف مما عرضناه عليه نحن .

* * *

وابدأ الموضوع من الوقت الذي اثيرت فيه قضية مساعدة الاربعين مليون دولار .. فقد بدأ ذلك عندما اجتمع ناصر الى دالس في ايار سنة ١٩٥٣ ، وكان انطباع ناصر هو ان اكبر رقم يدور في خاطرنا هو مائة مليون دولار وليس اربعين مليونا وهذه المبالغ تصرف للمساعدات الاقتصادية ، وان كل ما يجب عمله هو الحصول على الاتفاق مع بريطانيا على قاعدة قناة السويس للحصول على المساعدتين معا . ولم يكن هناك ما يلزم عبد الناصر بالانتظار ليوقع على اتفاقية القناة مع الانكليز ، ويكفي التظاهر امامنا بان المصريين يفاوضون ، فعلا ، باخلاص ، وان الاتفاق بينهم وبين الانكليز بات في حكم الواقع . واعتقد انه على هذا الاساس سافر علي صبري ـ وكان من اخلص اصدقائنا من ضباط الثورة ـ سافر الى واشنطن ليعاون الملحق العسكري في السفارة المصرية ، عبد الحميد غالب على انجاح المفاوضات .. والغريب ان هذين الشخصين يعتبران حاليا من اشد اعداء الولايات المتحدة . وسبب عدائهما هذا عائد الى اعتقادهما بانهما قد ضللا في موضوع المئتي مليون دولار التي سبق ووعدتهما بها الحكومة الاميركية .. وبهذا فقدنا اثنين من اقوى اصدقائنا وهما من اكثر الموظفين المصريين كفاءة ، فقد عمل احدهما ـ صبري ـ نائبا لرئيس

الجمهورية ، وعمل الاخير نائبا لوزير الخارجية ، واصبحا بالنسبة لنا عدوين لا امل لنا في استمالتهما الينا من جديد ، وذلك لشعورهما بالخيبة ، ويجب القول اننا فشلنا على مدى السنين في تلطيف جو الخلاف والحد من قوته .

ارتبكت الادارة الاميركية آنئذ وحارت في امرها ، اذ بدا واضحا بالنسبة لجميع الذين تحدثوا الى علي صبري وعبد الحميد غالب انهما كانا صادقين في اعتقادهما وانهما متأكدان من ان وزير خارجيتنا جون فوستر دالس وعد عبد الناصر فعلا بمبلغ المئتي مليون دولار .. وارتبك كافري ايضا لانه لمس في حديث عبد الناصر اقتناعه بالمبلغ ولم يستبعد ان يكون وزير الخارجية قد فرط على مائدة الطعام او في مكان آخر بوعد لم يطرق آذان مساعديه الاميركيين .. و فيذات مساء جاءني كافري يطلب الي أن اقوم بزيارة الى عبد الناصر واذا كان من الممكن ان يطلعنا على المذكرة التي سجل فيها محادثاته مع فوستر دالس . فعلت ذلك وصرفت بعض الوقت لاشرح لعبد الناصر ماذا نعنيه بكلمة مذكرة ، وقد جئت عندما علمت ان عبد الناصر لم يسمع بشيء من هذا . ومنذ ذلك الحين اصبح ناصر اكثر تعقيدا من قبل .. وبعدئذ صار يعمد الى تسجيل كل حديث له اهميته ويدخل في سجل الرسميات ومن خلال مكبرات الصوت المنتشرة في اماكن خفية من مكتبه وغرفة طعامه وصالون استقباله . وعندما طلبت اليه ان يخبرني عما جرى بينه وبين دالس اجاب انه من غير اللائق تسجيل كل ما يدور في حديث سري وانه ، هو شخصيا ، لم يدون شيئا من هذا النوع في مذكرته .. واستغرب ان يكون دالس قد سجل هو نفسه شيئا من ذاك .

بعد هذا الحديث وبعد حديث آخر جرى بين عبد الناصر

وسفيرنا كافري ظننت ان الاول غفر لنا خطأنا وسجل صفحة جديدة في علاقاتنا .. اما علي صبري وعبد الحميد غالب فقد استمرا على عدائهما ولم يغفرا لنا شيئا .. وقال لي عبد الحميد ذات يوم: عاملونا كاطفال واعتقدنا ان كل شيء قد اصبح واضحا.. واذا باحد موظفيكم يلقي علينا محاضرة وكأننا طلاب في اول عهدهم بالدراسة .. وجاء آخر يلقننا دروسا في السلم والدعة وكاننا اغبياء .. ان كل ما هدف اليه عبد الناصر من سفرنا هو التعرف الى مدى معاونتكم لنا ونصيبنا منكم .

* * *

وحدثني عبد الناصر حول هذا الموضوع ذات مساء وانا في حديقته مع حسن التهامي فحاولت التهرب من الاجابة المباشرة لان قانون لوغان يحرم علينا كموظفين ان نؤثر على رؤوساء دول اجنبية فيما يتعلق بعلاقاتهم مع الحكومة الاميركية ولم اكن راغبا في خلق المتاعب للسفير كافري . فقلت انني كنت افضل لو اقتصرت المطالبة على عشرين مليونا من الدولارات بالاضافة الى المشاريع التي سيتم انجازها .. اذ ما ان تدخل هذه حيز التنفيذ حتى نتبعها بمبلغ آخر .. انما لم يظهر عبد الناصر اي رد فعل لكلامي هذا ، واذا بحسن التهامي ينفجر قائلا : انا لست هنا لاسمعك توجه الاهانة الى رئيسي .. تتحدثون عن مئتي مليون ثم تعرضون عشرين منها .. نحن لسنا في موضع استجداء !.. اكتفيت بالصمت لاني لم اكن اريد ان ادخل في حوار مع حسن التهامي ..

تركنا عبد الناصر يأوي الى فراشه وعدت انا وحسن الى المدينة ، وقد بقي هذا الاخير ملازما الصمت طول الطريق .. وعندما تركني عند باب منزلي قال مودعا : سيجيء الوقت الذي تطلبون الينا فيه ان نقبل بمبلغ المئتي مليون دولارا .

اسرعت في صباح اليوم التالي الى مقابلة السفير كافري ، واخبرته بكل ما حدث في الامس ، وغمرني السرور عندما قال لي انني احسنت وانا اشير الى مبلغ العشرين مليون دولار وهذا رقم معقول .. بعد هـذا ارسل كافري يطلب خمسين مليونا وجاء الجواب باربعين فقط !

* * *

دخلت في مناقشات طويلة في تلك الايام .. واعتمدت فيها جوابا واحدا هو : « ليس هذا من اختصاصي ولكن ... » .. وسبب ذلك كوني قد اصبحت همزة الوصل بين ناصر وكافري ـ ولكن بصفة غير رسمية .. وتبين لي ، فيما بعـد ، انني كنت اتجنب المساهمة في عمليات فاشلة ، كنت اعتقـد ان المساعدة هذه لا تضم المبلغ الكافي لتحسين علاقاتنا مع عبد الناصر ووضعها في الاطار السليم . والمهم هو ان نعرف كيف نقدم هذا المبلغ .

وفي نهاية صيف عام ١٩٥٣ قمت بزيارة قصيرة الى الولايات المتحدة واطلعت مساعد وزير الخارجية ، بايرود ، علـى وجهة نظري واقترحت انه عندما يقدم المبلغ الى ناصر ، يجدر بنا ان نعلن له ان هذا المبلغ موقت وقد يرتفع او ينخفض وفقا للطريقة التي ستتبع لاستثماره ، والاستفادة منه .. واقترحت ، ايضا، اعطاء عبد الناصر مبلغا خاصا به واهدائه سيارة كاديلاك مصفحة وواحدا من المخابرات ليشرف بنفسه على تنظيم حرسه الخاص ويقترح عليه وسائل الحماية في منزله ، وكذلـك اجهزة الانذار واجهزة وادوات اخرى يمكن السيطرة بها على الاضطرابات ..

كانت هذه المقترحات معقولة في حينها وليس الان .. اما

بايرود فقد باشر بانجازها جميعهــا لانه كــان يصدق تماما ويثق بمعلوماتي حول الموقف ويعتبرها معلومات مــن الدرجة الاولى . فتحدث انه بالامكان ارسال ثلاثــة ملايين دولار وبصورة سرية وتسليمها الى ناصر مباشرة وبالامكان اقتطاعها مــن مخصصات رئيس الجمهورية .. وان المخابرات المركزية والبوليس الفيدرالي سيتخذان الترتيبات اللازمة للحماية والامن ..

وهكذا بلغ المبلغ المطلوب تقديمه الى ناصر في تشرين الثاني ثلاثة واربعين مليون دولار .. اربعون تقدم بنظــام كمساعدات وثلاثة ترسل سريا وتدفع مــن ميزانية رئيس الجمهورية بدون ايصال وسترسل الاجهزة والسيارة فيما بعد .

* * *

ولولا هذا الكتاب لبقيت قصة الثلاثة ملايين دولار سرا يحير الباحثــين مدى الاجيــال وبالاخص علماء الجيولوجيا كما تحير الاهرام علماءنا في هذا العصر .. تلقى السفير اشعارا بذلك وظن ان فكرة منح عبد الناصر هذا المبلغ هي ضرب من السخافة وانه اذا كان هناك شخص يمكنه تقديم المبلغ فهو انــا . وزار كافري وزير الخارجية محمود فوزي ليعلمه بالاربعين مليونا ولم يتحدث بشيء عن الثلاثة ملايين . ودفعني شك كافري وتردده الى زيارة حسن التهامي وطرح الموضوع عليه وقلت : نحن لا نضغط ونلح بالقبول .. ان المبلغ جاهز اذا اردتم استلامه .. والتهامي عمل كرئيس لحرس عبــد الناصر وتحدث عنه هــذا الاخير في كتابه « فلسفة الثورة » . واجابني : يمكننا ان ننفق مبلــغ الثلاثــة ملايين متى نشاء .. انما دعنا الان نرى هذه الدولارات ...

تأكدت من ان عبد الناصر موافق على قبول المبلغ السري

وعندما ابلغت السفير كافري اجابني غاضبا : ان المبلغ قد ارسل باكرا من بيروت وعلي ان اذهب بمفردي الى عبد الناصر ، من دون حرس ، كي لا اثير الشكوك . وبعد لحظات كنت في طريقي الى المعادي ، في سيارة اجرة يقودها اشرس سائق ، ربما ، في القاهرة .. وفي يدي محفظة تضم ثلاثة ملايين دولارا ..

استقبلني حسن التهامي في منزله يحيط به عدد من رجال الامن ولم ار في وجهه ما يدل على العطف او يشير الى الاهتمام . احصينا المبلغ مرتين فوجدناه ٢٬٩٩٩٬٩٩٠ دولارا أي بنقص قدره عشرة دولارات . وعلق التهامي بقوله : لا اجد في هذا النقص ما يدعو الى الشجار .. ثم استقل سيارة مارسيدس ضخمة واتجه الى منزل عبد الناصر ..

ولعل اول شعور انعكس في نفس عبد الناصر ، هو ان يعيد المبلغ ، او ان يعلن للعالم عن محاولة رشوة وبطريقة مناسبة كما فعل رئيس وزراء سنغافورة عندما عرض عليه نفس المبلغ وفي ظروف مشابهة ..

ولكن عبد الناصر كان يختلف جدا عن رئيس الوزراء السيلاني .

* * *

وكان الملك سعود ساذجا عجوزا ويشبه تصرفه معنا اثناء فترات عداوته لنا ، يشبه تصرفه في فترت تعاونه مع عبد الناصر . اما لبنان ، حيث يقسم سكانه الى قسمين متساويين من مسيحيين ومسلمين ، فبامكانه ان ينفجر تحت اي ضغط كان

ويقلب الامور رأسا علـى عقب . كنا وعبد الناصر نأسف لهذه الحالة وكان يبدو ان السوفيات يحاولون صنع مأساة كبرى من ذلك . وكانت فكرة المعاهدة تراود كلا الجانبين .

ولا انكر ان هنـاك اي انسان يعلـم ما الذي بـدد ذلك الاحتمال ، ربما كان ذلك سهلا وهو ان الجنرال ابو نوار ، احد مؤيدي عبد الناصر والقائد الاعلى للجيش الاردنـي قد قرر في داخله ان بامكانه المضي في محاولة انقلابية ضد الملك حسين . بعد كل هذا نقول ان المصريين قد غذوا الفكرة عنـده وان رئيس الوزراء ، سليمان النابلسي ، قد صرف النظر عن الحركة ، قبل ان ينضم الملك حسين الى الوحدة ، وجعلها غير ضرورية . وككل امر ، فان ابو نوار خطط للانقلاب وحاوله والذي رفع من قيمة السعر للمتآمرين في التاريخ الحديث وحتى طفح الكيـل وخلع الملك قسطنطين ، ملك اليونان ، في عـام ١٩٦٨ . واعـاد الملك حسين ، باقل ما يمكن التنظيـم ، الشرعية الى الجيش الاردني وفرض الحكـم العسكـري وراح ينتظـر ، بتلهف ، ان يقـوم السوريون بعمل ما حول الموضوع ذاته . من الطبيعي انهـم لم يفعلوا شيئا ، ولكن الولايات المتحدة ارسلت اسطولها السادس الى بيروت ووضعت نفسها تحت تصرف الصداقة السورية والتي نعم بها السوفيات قبل شهر . اما الملك سعود ، الذي اعلن انه سوف يساعد سوريا ضد أي عدوان ـ وقـد عنى به العـدوان الاميركي ـ فقد تخلص من هذا الوعد بطرق لا تسمح لي حرية نشرها والتي استطاع كل فرد ان يفسرها كما يحلو له . اطمأن نوري السعيد واكدوا له ان مركزه قوي جدا في المنطقة وان كلا الجانبين ، الاميركاني والبريطاني ، كان على بينة كافيـة من ان العمل ضده سوف يغير سير الامـور . امـا الرئيس كميـل شمعون ، رئيس لبنان ، فيعتبر في احيان كثيرة ، من الد اعداد عبد الناصر في العالم العربي ، ولذلك عمـد الى السيطرة علـى

الناصريين والشيوعيين والحد من نشاطاتهم . ليس هذا فقط بل عمد الى تمزيق المواقع البيروتية العاملة كمراكز لحركات ضد نوري السعيد والملك حسين والمرتدين الآخرين .

وفي نهاية عام ١٩٥٧ ، كان العضو الوحيد في وحدة عبد الناصر هو مصر .

ان عضوا واحدا لا يكون وحدة كافية .

ومنذ ان بقيت الوحدة عاملا هاما في استراتيجية عبد الناصر ، لم يكن امامه الخيار ليبدأ تسلق مرتفع حاد يراوده الامل بجلب العالم العربي الى الطريق الذي يريد دفعه فيه . اما الحل الوحيد للقضية السورية ، والتي رآها عبد الناصر تكون قلب الموضوع الاكبر ، كان في اتباع القاعدة التالية : ابحث عن القوة اينما تجدها .

وفي كانون الثاني سنة ١٩٥٨ وافق عبد الناصر على الوحدة بين مصر وسوريا في دولة واحدة عرفت بالجمهورية العربية المتحدة . وهكذا اصبح رئيسا ليس لمصر فقط ، بل لبلد آخر لم تطأه قدماه مطلقا .

واذا كنت اكتب لاقيم حسابا لهذه البادرة في لعبتنا مع عبد الناصر ، انما لاعيد ما قال مالكولم كر في « حرب العرب الباردة ١٩٥٨ ـ ١٩٦٤ » .

عمل الاخوان مصطفى وعلي أمين كرئيسين لاكبر دور نشر في القاهرة ونشرا في صحفهما اعلانا يعدان فيه بتقديم المكافآت لكل من يأتيهم بقصص تتحدث عن الفساد في الحكم وفي حياة

البلاد السياسية . وهكذا استطاعا مع محمد حسنين هيكل ان يغرقوا الصحف بالقصص المحزنة والمقنعة عن فساد النظام السابق وعن كل ما كان يجري فيه من رشوة وغش وانه من الضروري اتخاذ الاجراءات اللازمة للحد من ذلك وقمعه . سر الاميركيون من هذه الحملة وباركوها وشجعوها وقام السفير كافري باعارة الحكومة المصرية العميل « لاين بارغر » وكان هذا من اعظم المتخصصين في التشويش والدعاية وقد لعب دورا كبيرا خلال الحرب العالمية الثانية في تشويه سمعة الالمان الادبية .

انصرف بارغر الى تدريب جهاز الاعلام المصري على الطرق التي من شأنها الحاق الاذى والعار باشخاص عصاميين ، كمحمد نجيب مثلا ، وعن طريق مديحهم والثناء عليهم . ومثل هذا الشف لا زال المصريون يمارسونه في السياسة العربية .

واول ما سعى اليه عبد الناصر هو تأمين خبير عسكري باستطاعته ان يدخل النظام البروسي الى جيشه .. وجاء الملحق العسكري في سفارتنا يقترح عليه استخدام الضابط « ويلهالم فارم باغر » .. وكان هذا الاخير قائدا نازيا منع من الدخول الى المانيا ولكنه يكفي لحل المشاكل العسكرية المصرية رغم ما ارتكب في هذا الحقل من اخطاء مضحكة .

واقترح الملحق نفسه شخصية ثانية هي «اوتوسكورزوني» وقد اشتهر هذا عندما انقذ موسوليني من الاعتقال .. واعتقد الملحق ان هذه الشخصية صالحة من حيث المزاج والشخصية وبامكانه ان يتفق وعبد الناصر .

* * *

شغل عبد الناصر منصب وزير الداخلية ثم اسند هذا المنصب ، من بعده ، الى نائبه الذكي زكريا محي الدين الذي عمل في نفس الوقت كرئيس للمخابرات ، غير ان عبد الناصر هو الذي وضع اسس المخابرات الجديدة تماما كأسس المخابرات المركزية الاميركية وتم اسناد المناصب فيها الى الضباط الاحرار الذين كانوا يعملون تحت قيادة زكريا محي الدين قبل ان يتم الانقلاب .

اما حكومة الثورة فهي التي كانت تضع الدعاية وتتخذها كوسيلة للكشف عن اعداء النظام فتسلط عليهم اضواء غير حقيقية وتبرر ما يتخذ ضدهم من اجراءات تعسفية وقاسية .

* * *

من المؤكد ان الجيش المصري كان من مسببات ومخططي قاعدة القمع الثورية واستطاع عبد الناصر ان يجعل الجيش قادرا على القيام بهذه المهمة وخاصة بعد ان تأكد من غياب ذوي الاطماع السياسية عن المراكز الرئيسية ، وحتى عن مختلف بقية المراكز على جميع انواعها . واخرج من الجيش الضباط الذين عرف عنهم بان لهم مطامع سياسية واسندت اليهم وظائف مدنية، والهدف من ذلك كان اما ان يبرهنوا عن انهم جديرين لملء هذه الوظائف واما ان يفشلوا وينتهوا فيها .. اما الضباط الآخرون فكانوا يستدرجون من قبل العملاء المحرضين وتلقي عليهم الشرطة السرية القبض لانه كان يشك في نواياهم الانتقامية لنقلهم من وظيفة الى اخرى تقل راتبا ورتبة عن الوظيفة الاولى . وبقي قسم ثالث هم الضباط الذين لا غبار على سلوكهم ، وكان ولاء هؤلاء سهل الضمان اذ يكفي منحهم بعض الامتيازات التي ترفع من مركزهم ، وتبعث فيهم الفخر حتى يضمن تعاونهم كليا .

ولا بد لي الان من تسجيل شيء يتعلق بموقفنا حول استخدام عبد الناصر الجيش كاداة قمع .. فنحن لم نشك في انه عندما طلب عبد الناصر في الايام الاولى من حكمه مساعدات عسكرية ، لم يكن هناك اي بحث في ان تكون هذه المساعدات موجهة لتستعمل في القتال ضد الاسرائيليين او اليمنيين او اية جهة اخرى .. وان كمية السلاح لم تبحث مطلقا .. بل دار الموضوع بكامله حول اهداف الامن الداخلي .

واكد عبد الناصر لجميع سفرائنا ان نظامه يعتمد على مساعدة العسكريين له لضمان بقائه واستمراره وانه ينظر الى الجيش الضعيف كما ينظر الى اي جيش آخر مناوىء . وقد بلغ حجم المساعدات التي طلبها عبد الناصر في اول حكمه ما قيمته اربعين مليون دولار . وتدنت القيمة الى عشرين مليون ثم الى مليونين تكفي لشراء الاجهزة الاستعراضية كالخوذ وقراب المسدسات الجلدية اللماعة من مختلف الانواع التي تكفي لاظهار الجيش بمظهر جميل عند استعراضه في شوارع القاهرة ، وهي تعكس على الضباط ، بالتالي شعورا بالغبطة والاعتزاز . تأخرت الادارة المركزية عن تقديم مثل هذه المساعدات الضئيلة مما ادى بعبد الناصر الى الاندفاع والتقرب من السوفيات . ثم الاتصال باوتو بطريقة روتينية ثم تلاه اتصال عن طريق آخر اعلى ، وبعد هذا قام بزيارة الدكتور شاخت ، وزير المال في حكومة هتلر ، وكان الوزير والدا لزوجة اوتو .

استطاع ، عبد الناصر ، اذا ، بواسطة الشرطة والمخابرات والجيش ان يؤسس قاعدة للقمع تمكنه من حكم مصر بالطريقة التي كان يتبعها الاب دوفاليه لحكم هايتي . فامور كهذه كفيلة بان تمكنه من اتخاذ القرارات الضرورية والبناءة وهو في مأمن

من انتفاضة الشعب عليه . ويجب الا ننسى ما قيل من ان عبد الناصر هو رئيس لدولة بوليسية ليس فيها حرية الرأي ولا اي نوع آخر من الحريات .

حرمت مصر ، من جراء هذا النظام من كل الصحف ولم يبق فيها الا التافه منها ـ اي الصحف ـ كما ان بعض الطبقات استمرت تصغي الى اذاعات اسرائيل ولندن بحثا عن الحقيقة ، ولكن المواطن العادي لم يشعر ابدا بان عبد الناصر سلبه حريته وضيق عليه وليس لديه اشياء يقولها جهرا .. والمعروف ان المصريين الذين يكنون العداء لعبد الناصر سيستمرون هكذا حتى ولو منحهم هذا الاخير جميع انواع الحرية واغرقهم بالامتيازات . وهكذا نرى ان حجة عبد الناصر واعوانه ترى في ان منح الحريات في وقت لا يعود على احد بالفائدة ، فهو يعود على الجميع بالخسارة ..

* * *

شعر المراقبون الغربيون بالمرارة وهم يرون الاملاك تصادر تعسفا والناس يزجون في السجون بمجرد الشك فيهم والصحف تخضع لاشد انواع الرقابة والمراسلون الاجانب يتعرضون لاخشن انواع المعاملة واعنفها.. ولكن اعمال ناصر هذه لم تكن عبثا ـ مهما تركته من انطباعات خارجية ـ بل عد لها بدقة وهدوء ، وكانت العناصر التي تعرضت لها معروفة وقليلة .

ولكن الشعب ، بعامته ، لم يتعرض لشيء ولم يلحقه اي اذى .. وكل ما كان يصدر عن عبد الناصر كان يعتبر حجة للدفاع عن نفسه وحمايتها وهو يتبع فيما يقوم به من اعمال ما قام

به الاسرائيليون الذين يكرهون وجود اناس في بلادهم لا ينتمون الى الجنسية اليهودية .

***

وعند ما بدأ عبدالناصر يجس نبض مختلف الدول العربية، وجد ان القضية ليست بمنتهى السهولة . ونعطي مثلا على ذلك، ففي شهر آب سنة ١٩٥٤ ، ارسل عبدالناصر بعثة الى العراق لتتحدث الى الملك وولي العهد ونوري السعيد ، فوجد ان الزعماء العراقيين ليسوا على استعداد لاعتناق الحياد لانهم كانوا خائفين من السوفيات والشيوعيين ، وانهم سيربحون الكثير دون ان يدفعوا شيئا من جراء توطيد اواصر صداقاتهم وتحالفهم مع بريطانيا والولايات المتحدة . ومع ذلك وافق نوري على استمرار المناقشات حول الموضوع . وجاء يزور القاهرة بعد شهر من اجل الاقتراح السابق والذي تقدمت به البعثة المصرية . وهنا اتضح لعبدالناصر ان المصريين الذين ذهبوا الى العراق فشلوا بطرح آرائه وان نوري السعيد عرف كيف يقود النقاش ويبدي معرفة تامة بالامور ويستفيد من نقاط الضعف التي لمسها عند المتحدث المصري الاول صلاح سالم — وتيقن عبد الناصر من ان هذه المعرفة لا يمكن ان يحصل عليها نوري الا من المخابرات المركزية الاميركية . . وخلص الى ان جهاز مخابراتنا كان وراء تفوق نوري السعيد على صلاح سالم ، ووجد انه من السهل التصديق بان المخابرات الاميركية هي التي لفقت التهم ضد صلاح سالم في مؤتمر صحفي آثار رأي الزعماء العرب وخاصة في سوريا والسعودية .

كان التصريح المزيف الذي ادلى به صلاح سالم هو جوابه على سؤال حول الموقف المصري تجاه اتحادات ثنائية بين البلدان

العربية ـ وهنا تكمن اشارة واضحة الى احتمال قيام اتحاد بين سوريا والعراق والذي عارضته مصر طويلا . واجاب سالم حرفيا « اذا اثنان او اكثر من الدول العربية رغبا الاتحاد بشكل ما ، فان مصر لا تعترض ابدا . » .

كانت البلدان العربية التي شملها نفوذ عبدالناصر بشكل خاص هي : العراق ، المملكة العربية السعودية ، سوريا ، لبنان، الاردن والكويت وليبيا ، وكان يحكم هذه البلدان ، بالتتابع : نوري السعيد ، الملك سعود ، اديب الشيشكلي ، كميل شمعون، الملك حسين ، سالم الصباح ـ المعروف بالحاكم ـ والملك ادريس السنوسي . من بين هؤلاءجميعا ،واحد فقط كان يبدي حماسا منقطع النظير للفكرة الداعية بان يتسلم عبدالناصر زمام الامور ويبني سياسة خارجية للعرب جميعا . واعتقد عبدالناصر ان لديه التعاليل الجيدة ، فقال ، : بعد كل هذا : « ومهما يكن من امر فاننا جميعا ننال من الدول ما نريده اذا ما نحن واجهناها مجتمعين » . كان يتحدث عن المبادىء بوجه عام ولم يحددكيفية ذلك. لم يكن لديه مخططات، بالتأكيد ، ليضع من ذاته، شخصيا، قائدا لأي اتحاد عربي كان .. كما لم يكن هناك مخططات لزعماء آخرين ، لانه مع كل هذا ما زال محمد نجيب ، آنذاك ، رئيسا لدولة مصر ..وبامكان هذا الاخير ـ وقد آمن ناصر بذلك ـ ان يصبح كقائد للحركة ، لانه مهما كانت المشاعر تختلف عن بعضها البعض فعليهم ان يقبلوا بان تكون القاهرة ، مركز الثقافة العربية ، كمقر قيادة عامة ومنطقية .

وان الثورة تؤمن ان وزن الدفاع عن البلدان العربية ،يقع اولا وآخرا على عاتق العرب انفسهم ولكنهم ما زالوا يفهمون ذلك خطأ .

كان هذا بعد اسبوع ، وبواسطة الجنرال محمد نجيب ،اذ تلقى عبد الناصر تأكيدين من الرئيس ايزنهاور بان اتفاقا انكلو ـ اميركيا حول قاعدة السويس سوف يفتح الطريق امام مساعدات اميركيه اوسع ، يضاف الى ذلك تأكيدات جميع اعضاء السفارة الاميركية من ان مساعدة كهذه سوف تتأثر من جراء امتداد السيطرة التي كان عبدالناصر يخطط لها لتصبح « تأثيرا اعتداليا» في القضايا العربية . اخبرني ناصر ، في ذلك الوقت انه يجب ان تصبح صاحب نفوذ قبل ان تسعى لبسط نفوذ معتدل . **ولكن** عبدالناصر لم ير ريبة في الامر لانه لم يكن قد عرف بعد ما ذا تعني بكلمة « معتدل » .

***

علم السوريون ان نوري السعيد لم يناقش اتحادا كهذا مع المصريين ، انما كان بامكانهم تصور التردد المصري وان الثوريين سيتخذون مسؤولية الموقف على عاتقهم ويتخلون عن نوري السعيد اذا هو اراد ضم سوريا الى الوحدة المقترحة .. اما السعوديون فخلصوا الى نتيجة هي ان السوريين على علم تام بالمحادثات ولذلك تنصلوا منها.. حتى ان اللبنانيين وجدوا في الامر ما يتعلق بهم ، ومنذ ان جعلهم تصريح سالم يشكون في ان الحكومة المصرية الجديدة لم تعد راغبة في تنظيم العالم العربي وان الحديث عن « الجبهة الموحدة » ما هو الا تغطية وتمويه لكل هذا .

استفاد ناصر جدا من هذه الاحداث .. وخلص الى درس هام : هو بحث التقارير جيدا وكشف ما تخفيه من معان وراء السطور ، ومنذ ذلك الحين اخذ عبدالناصر يراقب ، بدقة، الطريقة التي تتم بواسطتها دراسة الاحداث وفهم المتناقضات وكشف

الغطاء عن الغامض منها .

***

حدثت اتصالات جانبية مع بقية الزعماء العرب ـ بواسطة السفراء في القاهرة وبواسطة سفراء مصر في العواصم العربية المعنية في الامر وكذلك بواسطة البعثات المختلفة كالتي ذهبت الى بغداد ـ ولكن هذه الاتصالات فشلت جميعها . ففي كانون الاول دعا عبدالناصر وزراء الخارجية العرب الى القاهرة ليشرح لهم بوضوح وجهة نظره حول جبهة اتحادية ايجابية ، وفشل الاجتماع ايضا ولم يؤد الى اية نتيجة مع ان عبدالناصر استفاد من اجل فكرته عندما تنحى عن المناقشات الشخصية وقال : «مهما تكن النتائج والعراقيل ، دعونا نعمل على حلها » ، ثم اراهم ان مصر ، وحدها ، لا تكفي ولا يمكنها تحقيق وحدة شاملة .

وفي نهاية العام بدأ عبدالناصر تجربة جديدة تقضي بتقييم و « تهذيب » الزعماء العرب ـ على الاقل الذين هم في سدة الحكم . ولهذا اعد برنامجا دعائيا موجها الى العالم العربي .. وهو الآن يصدو اوامر يبثها راديو القاهرة ـ صوت العر ب ـ اذ ان قوة هذه المحطة تسمح بحمل صوته الى العرب اينما كانوا وبايضاح اكثر من صوت اميركا واذاعة بريطانيا او اية محطة اذاعية اخرى في العالم العربي وبطريقة تجلب انتباه المستمعين متضمنة النشرات الاخبارية والتعليقات والقصص الدرامية وحيث بامكان كل عربي ، في اي بلد كان ، ان يستمع الى البرامج حسب لهجته مما جلب التسلية للمستمع العربي فوجد ابن الجزيرة في راديو القاهرة ما يسليه ولم يعد يبغي عنه بديلا .

***

اما الموضوعات فكانت كالآتي :

١ ـ نحن العرب ، يجب ان نتحـــد لنحمي انفسنا من استغـلال الامبريالية لنا :

ان اخبث الامبرياليين هم البريطانيون ويليهم ، مباشـرة ، الاميركيون والسوفيات . وحول هذا الموضوع قدم الاقاصيص عن البريطانيين ـ ثم الاميركيين والروس وكيف كانوا يأتون الى البلدان بقصد محاولات تقديم المساعدات ، فيستغلون البلاد ويتعرضـون لاستقلالها . لم يكن هناك تهجمات فردية على اولئك الزعماء ولكن الذين كانوا على صلات متينة مع الدول الكبرى وجدوا انفسهـم مجبرين على شرح وجهات نظرهم وتبرير مواقفهم تجاه تلك الدول.

٢ ـ نحن شعب عربي :

وبكلمات ادق يمكننا ان نسمي ذلك ،اسطورة .

لم يكن هناك دفاع عن سياسة الاتحاد العربي أو عن التعاون في المستوى الاداري . . كما لم يكن هناك حديث عن عادات الاتحادات ولا عن حذف متطلبات تأشيرة السفر للعرب الذين يودون السفر الى بلد عربي آخر او الاشارة الى اية اختلافات اخرى تنخر جسد العالم العربي . ووراء هذا نجد ان المادة واسعة ثقافيا وعلميا لما تتضمنه من قصص تاريخيـة واحاديث فلسفية وجميع الطـرق السفسطائية التي تشجع المستمعين على البدء بالتفكيـر في اسس عربية موحدة .

٣ ـ عبدالناصر يقف في وجه الدول الكبرى :

بعد تنحية محمد نجيب ، وبعد ان قدم عبد الناصر مثلا أو

مثلين على ظهوره كأول زعيم مصري منذ مئات السنين يفرض نفسه على الاوروبيين ويذهب بعيدا معهم ، بدأت البرامج تظهر وتكشف عن هويته الحقيقية .. فهو اصبح خارج نفوذ هذه الدول وبعيدا عن سيطرتها .. وحافظ راديو القاهرة ، بتمثيلياته ، على استمرار هدؤ عبدالناصر قبل ان يجابه كبار الضباط البريطانيين ، منهيا بذلك تبادل الحوار بعد ان وسمه بطابعه الجدي وصوته الجاف ، كما كانت هناك قراءات يتلوها الممثلون شعريا ومقتطفة من احاديث عبد الناصر على مختلفها ، وكانت هناك ايضا قصص عن فقراء افريقيا وآسيا والعرب متضمنة عدة انواع من التعذيب والاحتقارات على يد الاوروبيين ، ولكن الجميع كانوا مخلصين الى القول : «ان ناصر سيخلصنا» والمدهش ان المستمعين كانوا يصغون الى ذلك دون الشخصية الناصرية حتى ان صوره وزعت في الكويت وفي كل دكان مصري اكان صاحبه من المؤيدين لعبدالناصر ام لم يكن .

***

٤ ـ ناصر في الحلقة الكبرى :

لما بدأ عبدالناصر يقود زعامته على المفتوح ، بعد تنحية الجنرال محمد نجيب ، اعتبره بعض الزعماء العرب كحدث لا يجب اتخاذه جادا وذلك استنادا الى تجربة السياسيين السابقين .. ولكنهم عندما بدأوا يرون الاحداث المصورة تعرض لهم ناصر يتحدث مع اعظم الشخصيات في العالم ويشاركهم مكانته ، عندئذ فقط راحوا ينظرون اليه بتقدير واحترام . وفي شهر واحد ـ في شباط سنة ١٩٥٥ ـ استقبل عبدالناصر في القاهرة كلا من تيتو ، ونهرو وانطوني ايدن والملك حسين ـ هؤلاء بالاضافة الى رتل من رجال الكونغرس وحزب العمال البريطاني والكثير من المراسلين العالميين الشهيرين .

ويمكننا ان نقابل ردة الفعل عند الشعب العربي وندرك مدى فعاليتها عندما يرى سكان المدينة احد ابنائهم يتحدث مع شعوب عظيمة على شاشة التلفزيون ، قاسموه انتصاراته .. انه ملك لهم الآن .. عربي مثلهم .. فقد كتب احد الصحافيين العراقيين ـ اثناء حديثه الى الشعب عن جميع مستويات التربية داخل العالم العربي ـ كتب يقول : انني اشعر كعربي ولست ببعيد عن شعوري كعراقي .

وهكذا خلق عبدالناصر اسطورته : القومية العربية يقودها هو بنفسه ، وبقيت حقيقة القومية العربية لا وجود لها .. فانت تصرف ساعتين لاجتياز الحدود السورية اللبنانية كما تصرف نفس الوقت لاجتياز الحدود السورية الاردنية .. واستمرت الحكومات العربية على خلاف مع بعضها البعض وبقيت الاعتداءات الثقافية بين السوريين واللبنانيين والعراقيين والمصريين كما هي عليه .. حتى ان اللاجئين الفلسطينيين ـ ومنذ وجود كلمة « اخواننا العرب ـ كانوا يعاملون كغرباء في جميع انحاء البلدان العربية .. ولكن الاسطورة تمت وهذا ما يسميه المراقبون « القوة المسيطرة في سياسات العالم العربي اليوم » .. فهذه تعتبر كحقيقة للزعماء العرب كما هي سانتا كلوس بالنسبة لماركر . وسبنسر .

انما لم تكن مسيطرة سيطرة كافية . فقد نجح عبدالناصر في وضع خط المقاومة المخيف امام الزعماء العرب ، خط القومية العربية كما تم تحديده في القاهرة ، انما بقي اولئك الزعماء الذين كانوا اقوياء كفاية ..او المستائين كفاية من القاهرة ـ ليندفعوا بطريقة طائشة ويتهجموا على اتحاد ناصر . وهكذا لم يجد ناصر بدا من التحرك الى الجهة السلبية من الاتحاد .

الناصريــة والارهاب

قضيت قسما كبيرا من آخر عام ١٩٥٦ واوائل عام ١٩٥٧ اتحدث الى مجموعات من الرسميين في الحكومة الاميركية والتي كنت اود آنذاك الوقوف الى جانب عبدالناصر فيها ، انظر الى قضاياه كما ينظر اليها هو نفسه وشارحا الاساليب التي استخدمها لحل مسائله . كما لجأت الى وزير الخارجية فوستر دالس والى مكتب مساعده هربرت هوفر ليساعداني على ايجاد حل لردة فعل عبدالناصر ازاء بعض ماكانت تقوم به حكومتنا . لم يكن من الصعب جعل سلوك عبدالناصر مفهوما ، كما لم يكن صعبا تقريبه الينا وجعله يستحق استلطافنا . ولكن كان هناك مظهر واحد مما سبق والذي وجدت صعوبة في انجازه وصعق مرؤوسي وزملائي كلما حاولت ان اشرح لهم وجهة نظري . اخبرت ، مباشرة بعد ان تركت واحدة من اهم المحاضرات حيث كان علي ان اقوم « بعمل عبدالناصر » ، وكما اعتاد دالس ان يقول، اخبرت ان احد الموظفين الكبار في وزارة الخارجية التفت الى جاره وقال : « اني لا اصدق ذلك الفتى ،انه يتحدث كثيرا مثل عبدالناصر لا بل اكثر منه . » .

وفي مناسبة اخرى التفت نحوي الن دالس غاضبا وقال : « اذا دفعنا صاحبك الكولونيل بعيدا جدا فاننا سنكسر ظهره » . واذا كان هناك من انسان يفهم ــ ويستعمل كالعادة ــ عبارة « ضع

نفسك مكـان الآخرين » لتتقرب مـن التحاليل السياسية فهو الن دالس نفسه .

***

ان مظهر الناصرية الذي كان ولا يزال فوق مستوى فهمنا هو مرادفته للرعب .. والاميركيون لا يحبون الرعب .. مع انه يلعب احيانا دورا هاما في عمليات الغرب ضد الزعماء الافرو ـاسيويين.. كما ان عبد الناصر وافق على الاعمال الارهابية .. ولما كانت بلده تعتبر كمثال للقانون والنظام ، كان راديو القاهرة يدعو الى المشاغبات والاضطرابات في تلك البلاد التي لا يزال زعماؤها يعارضونه ..حتى انه في بعض الاحيان شجع على اغتيال اولئك الزعمـاء .. فارتعب السياسيون الاميركيون والمراقبون من هذه التحريضات .

والذي حدث انه كانت هناك بعض الافكار الذكية وراء استعمال ناصر للارهاب .. وكزعيم يدعو الى اتحاد لم يكن امامه سوى محاربة « الجربانين » .. ولا تعتبر الاتحادات فعالة ما لم يتوفر الاجماع على الآراء والحزم على القيام بعمل موحد . استخدم عبدالناصـر طرقا قاسية تفوق تلك التي لجأ اليها زعماؤنا في الولايات المتحدة.. ويمكننا ان نعزو الفرق الى البون الشاسع بين مجتمعينا .

***

ربما كان من الصعب علينا ان نقبل بالعبارة القائلة :ان العنف يصلح لقيادته الارهابيون ويؤدونه على خير وجه اكثر من ارهابيين هم وليدي الصدفة وليس اكثـر .. وبالكاد نستطيع ان نسمي

الذين اشتركوا في معاركنا بارهابيين .. واستوحى عبد النـاصر الارهاب من البلدان المتأكلة والذين حصلوا على نتيجة احسن مـن ارهابييهم او كما يسميهم مروجي السياسة الناصرية ، المتعصبين.

فالمتعصب ، في علم السياسة الناصرية ، هو كل من ينكر نفسه ويذهب الى ابعد مدى دون ان يهتم بذاته، من اجل خدمة قضية ما . انهخاسر مبدئيا ، ولكنه سلاح فعال في ايدي من هـم دون التعصب .. وبكلمة اخرى فواحدهم يعمل « ليعيش » من اجل القضية التي يؤمن بها ولا يستطيـع عبد الناصر ان يعتمد عليه ليذهب من خسارة الى خسارة .

ولعبة المتعصبين هي اشبه بلعبـة « الصوص » .. انهـا فكرة كان يقولها لذاته « اذا علمت انني لست ذاهبا لاربح ، فانا ذاهب لاموت ،ولكنني سأرميكم ارضا معي » .

***

والواقع ان الحركات التعصبية تكون عادة ضد بعض اشياءتجعلها غير مرغوب فيها في بعض البلدان ــ باستثناء البعض الآخر ــ وكماكانت الحالة في الايام الاولى لحكم عبدالناصر ــ عندما يكون بامكانها ان تستخدم ضدقوة ما وليس ضد الحكومة نفسها.. ولكن هذا يجعلها في غاية الفائدةالمرجوة عندما يكون الهدف من شأنه ان يضغط على زعيم من اي بلد آخر . ويتطلب اقناع المتعصبين بخطأدولتهم وقتاطويلا. هناك اشياء ليست كما يجب ان تكون لاغتيال الشعوب والهـدف الاكثر ملائمة هو دائما الحكومة .. وفي هذه الحالة وجد ناصر من السهل لصق التهم بالزعماء العرب العاملين ضده والذين كان يأمل منهم ان يلتفوا من حوله .

واخيرا ـ وهنا نأتي الى صلب الحرب التقنية الناصرية ضد مناوئيها ـ لم يكن المتعصبون بحاجة الى ادارة اختصاصية ، انما يحتاجون الى طريق مفتوح يسمح لهم بالانطلاق . كما انطلق الاميركان والبريطانيون ـ والى حد ما الروس ـ انطلقوا يعدون التفاصيل عندما يرغبون باسقاط بعض الحكومات . . وجاءت انقلاباتهم (او اكثرها) منظمة ودقيقة كأهم العمليات الحربية . (فعملية مصدق لم تتطلب سوى ثلاث ساعات من الاجتماع في غرفة مقفلة ـ مزودة بالخرائط والمعلومات المفصلة واستعدادات القوى العاملة . . الخ) . وباستخدام الحركات التعصبية قام عبدالناصر بمهاجمة الزعيم الذي يهدفه بواسطة راديو القاهرة وعزل الحركات الاكثر تعصبا والتي بدت اكثر اثارة من جراء الهجوم . كما زودها بالاسلحة وبكل شيء آخر تحتاجه . .

واذا كان هناك من اهتم بمخططاتهم ككل ، فلانه اراد ان يعلم وفرة حظهم في النجاح ويؤسس قاعدة يضع فيها آخرين تابعين له ولاهدافه والتي بدونها لا يتسنى للمتعصبين ان يركزوا بداية انتصارهم .

وسنجمل النقاط اللازمة للاطاحة بحكومة رافضة . سنجملها في النقاط التالية : اولا ، مهاجمة تلك الحكومة من راديو القاهرة محيكا التهم ضدها والتي هي مخصصة لاثارة المجموعات المتعصبة بينما تخفف من حدة التهم المعتمدة والتي يجب ان تزعج ناصر حتى ينجح الانقلاب ثانيا ، ادرس ردود الفعل للدعاية وكأنك تود ان تتعرف الى هوية المتعصبين والتي يجب ان تكون في عداد العمل ، ثالثا : قرب المتعصبين ، سلحهم ، وتعلم كيف تتعرف الى اهدافهم ، رابعا : اكشف هوية المعتدلين الذين يجب ان يتسلموا زمام الامور في الوقت المناسب (احيانا قبل الاطاحة بالحكومة واحيانا بعدها) ثم اعمد الى تقوية الربح . . أمن الاعتراف بالحكومة الجديدة عندما ينجح الانقلاب وتابع مساندة راديو القاهرة .

ان لهذا التقارب احتمالين هامين : اولا، ان التعرض لمثل هذه العملية هو كبداية حريق في غابة : سهل ان يبدأ ولكن يصعب ايقافه، ثانيا ، ان المعتدلين في العملية ، والذين من المحبب ان يكونوا ماكيافيليين كعبدالناصر، لا يمكن ان يعتمد على اخلاصهم لمساومتهم. وجاء لقاء عبدالناصر والملك حسين، ملك الاردن ، ليصور الخطأ الاول : وهو عندما اخبر الملك حسين عبدالناصر ، فعلا ، قائلا له : « حسنا موافق » . ولم يكن عند عبدالناصر طريقة نظامية لتهدأة الامور .. ويمكن اعتبار انقلاب العراق في سنة ١٩٥٨ كأيضاح للخطأ الثاني .. مع ان زعماء الانقلاب لم يقدموا على عملهم بدون تشجيع مصر وتأكيدها لهم بانهم سيتلقون التصفيق الحار للوحدة من كل حدب وصوب .

كما ان حرب عبدالناصر ضد المأجورين لم تدع اي عربي يفكر بعقد معاهدة او اتفاق مع دولة قوية غربية كانت ام شرقية ،دون ان يأخذ الوحدة بعين الاعتبار وحتى تمنيات عبدالناصر نفسه . واذا ما كان هناك عدد من الفجوات في الجبهة العامة ، فليس هذا عائد الى ان الاستراتيجية لم تتبع في الوقت الذي تم ايجادها فيه ولكن هذا يعود الى ان المناسبات العالمية تغيرت .

لقد كنت صريحا جدا عندما نبهت اصدقائي المصريين ، كما نبهت عبدالناصر نفسه في بعض المناسبات ، الى أن تحالف الناصرية المعروف مع الغلاة من البلدان المجاورة يجلب شيئا من عدم الثقة في نظر العالم الغربي وان هذا يخفف من مكاسب الوحدة ..وقدر الجميع ذلك جيدا . ولكنهم اجابوا بان ضربتنا القاضية مدعومة بالقوة والصحة والتي لا يرغبونها كثيرا .. يجب عليهم ان يستخدموا كل ما هو ذو قيمة لهم . فاستخدام الرعب يكمن مع الاستراتيجية الكبرى والتي بواسطتها تستطيع الدول الضعيفة ان تنال حظها

في لعبة الامم ضد الدول الكبرى .

***

ولكي نتتبع هذا التعليل ، يجب ان نملك تفهما كاملا لاستراتيجية الضربة القاصمة التي يراها الزعماء الناصريون ، او يفكرون انهم يرونها ، في جانبنا . كانت الستراتيجية مربكة بالنسبة لهم لاننا ارتأينا ان نستخدمها بينما نحاول استخدام اتحاد ناصر كذلك ، ثم نستفيد من رقعة امتداد نفوذه وندفع الى الامام احد المشاريع التي تهمنا ونأخذ مثلا هنا الخريطة التي اعدها اريك جونستون لنهر الاردن والذي ربط عبور النهر بنتيجة نفوذ كهذا .. وهناك مثل آخر هو محاولاتنا المتكررة للضغط على عبد الناصر ليتسلم الزعامة ويخفف وطأة الصراع بين العرب واليهود » . واخيرا انزلقت حكومتنا نحو عملية واحدة والتي تضمنت مساندتنا لوحدة عبد الناصر لكي يتمكن من ذلك .

***

كان كل شيء يدعو الى الارتباك . لقد عملنا بقساوة لنحطم نفوذ عبد الناصر اكثر مما عملنا لبنائه وبسطه .. وكان عملنا « على المفتوح » :

أولا ، كان هناك حلف بغداد . يقول عنه باتريك سيل : « انه كان ذو اثر عميق على جميع مستوى الساسة العرب » . اما فاتيكيوتس فيقول : « كان ذلك تجربة مرة » بالنسبة لسوريا. كانت هذه تصاريح مقصود بها ان تصور الفكرة على نحو اقل مما تقتضيه الحقيقة .. فهز حلف بغداد العالم العربي طيلة فترة

جعلته يبدو وكأنه يفوق مقدرتنا ، ومن اجل المساعدات المالية التي تحت تصرفنا ، في المحافظة على القليل من هيبة الغرب في الشرق الاوسط .. وهذا ما يعلمه كل اميركي وانكليزي تربطه بالمنطقة علاقات مختلفة .. ولكني في نفس الوقت كنت قد تحديت سيل وفاتيكيوتس ، واي شخص آخر ليستمروا في واحدة من هذه اللقاءات فيمكتب دالس ويعلنوا عن ان هذه هي الحالة الراهنة بالفعل .

* * *

في نيسان ، ١٩٥٤ ، وقعت كل من تركيا والباكستان « معاهدة صداقة وتعاون للحفاظ على الامن » . لم يكن هذا ، بالمعنى الصحيح ، حلفا حربيا ، انما ارتباطا وقعه الاتراك والباكستانيون دون تدخل الاميركان والبريطانيين . كان البوليس المختص بالمحافظة على سلامة عبد الناصر وكذلك بوليس المطار يصور كل جواز سفر لكل اميركي او انكليزي او اي مسافر آخر يمر في مطار القاهرة بطريق الترانزيت . وكان سهلا جدا على ثلاثة مسافرين اميركيين ، قبل توقيع الاتفاق ، ان يمروا في مطار القاهرة يحملون اشارات سفر تركية وباكستانية مؤشر عليها . وفي ذلك الشهر بالذات وافقت حكومة الولايات المتحدة على مساعدة العراق ، وفي ظروف جعلت عبد الناصر يشك بقوة ، مع ان العراق لم يقم باعطاء التطمينات كما طلب اليه كل من جرهارت وافلاند ان يفعل ، لان نوري السعيد ابدى نوعا من التحفظ تجاه ذلك . وبعد تسعة اشهر – في كانون الثاني ١٩٥٥ – كان العراق وتركيا يعلنان

ــ متحدين ــ انهما في طريقهما الى ابرام تحالف بينهما والذي قاما به بالاتفاق مع بريطانيا وتم التوقيع عليه بعد ثلاثة اشهر .

في ذلك الوقت كنت اعيش في القاهرة ، واقوم بزيارات مستمرة الى سوريا والولايات المتحدة ، حيث كنت اجد وقتا كافيا لزيارة زملائي في واشنطن . اخبرني افلاند اثناء زيارته الى القاهرة مع جيرهارت ، وفي شهر تشرين الثاني سنة ١٩٥٤ ، عن سلسلة الاحداث المحتمل وقوعها واكد لعبد الناصر ان مصر ستجد نفسها في المؤخرة ولكن احدا منا لم يصدقه ــ لا السفير كافري ولا جيم ايشلبرجر .

* * *

اما ايشلبرجر فقرأ عن اليوم الذي وقعت فيه تركيا والعراق الحلف فيما بينهما ، قرأ عنه في نشرة خاصة بالسفارة الاميركية ، ولم يصدر عن وزارة الخارجية الاميركية اي كلام عن الموضوع ولم يرد ذكره في البرقيات التي ترد يوميا الى السفارة . واقترح ان يذهب اثنان منا في الحال ، الى بيت عبد الناصر ويطلعانه على الحدث . جلس عبد الناصر صامتا برهة ثم ذكرنا بصوت هادىء ما سبق لافلاند وجيرهارت ان قالاه وكيف ان جميع الاميركيين الذين هم على اتصال دائم معه ، بالاضافة الى السفير كافري نفسه ، كيف طلبوا اليه جميعا ان يصدقهم القول باننا سنتيح له الفرصة لبناء مؤسسة عربية محلية لا ترتبط بالغرب مباشرة. كان حسن التهامي حاضرا فغضب وبدأ يثور .. انما هدأه عبد الناصر .. وتركنا الاثنين صامتين عندما غادرت المنزل انا وايشلبرجر .

وفي اليوم الثاني ذهبت الى دمشق لتفقد بعض الاعمال

الخاصة ، واخذني صديقي القديم مجد الدين جبري ، وكان آنذاك وزيرا للاشغال العامة ، لاقابل وزير الخارجية فادي الاتاسي الذي طلب الي ان اقرأ مقاطع وعبارات لم اسمع بها ابدا ولا اعتقد ان واشنطن على علم بها .. انما اعتبرتها كافية لابداء وجهة نظر العرب وكيف كانوا ينظرون الينا .. واليك ما قرأته :
« **الاستعمار يحاول ابقاء العرب ضعفاء** » .. « انتم لستم سعداء ما لم تستعبدونا » .. «تفضلوننا عندما نكون خبالى ورومانطيقيين» .. « المخابرات المركزية الاميركية » .. « **فاضل الجمالي عميل** اميركي » .. « ولي العهد يطمع بحكم سوريا » ..

* * *

قضيت ، في اليوم ، ست ساعات اتخبط مع ثلوج جبل لبنان وانا في طريقي الى بيروت .. كما قضيت امسية كاملة مع بعض العناصر المؤيدين لعبد الناصر والذين عاملوني نفس المعاملة التي لقيتها منه في القاهرة ، وحصلت على نوع آخر ، وكثير ، من العناصر غير المؤيدة لعبد الناصر والتي اكدت لي ان ما قاله الآخرون صحيح . وفي نفس اليوم التقيت في صالون السفارة الاميركية بمؤيد كان في زيارة لواشنطن ، فلمس ذراعي وقال :

« اظننا جعلناك اخيرا من محبي ناصر ومؤيديه » .

في نفس الوقت عدت الى القاهرة حيث كانت الاستعدادات قائمة لاجتماع وزراء خارجية الدول العربية . وحدثني اصدقائي المصريون المعنيون بالاجتماع فقط ليطلعوني على افكار وزير خارجيتنا فوستر دالس وما تضمنته من مبالغة . وعندما وصل

وزراء الخارجية (تعرفت الى قسم كبير منهم وتحدثت الى اكثر من نصفهم) ، اعربوا عن وجهات النظر التي ادت الى اقتراحات دالس ، بينما كانوا في الحقيقة على اختلاف دائم فيما بينهم ولكنهم اجمعوا على الوقوف صفا واحدا ضد دالس وآرائه .. كانت خلافاتهم تدور حول « التقارب المصري ــ العراقي » والذي سيتصاعد ليوافق السوفيات اكثر من الغرب .

* * *

في هذه الاثناء وصل بيرود الى القاهرة ليتسلم منصبه الجديد كسفير لنا . وتناولنا طعام العشاء في منزلي انا وعبد الناصر والسفير الجديد وكل من عبد الحكيم عامر وحسن التهامي. كما اوجزت باكرا للسفير ، انا وايشلبرجر ، وجهة نظرنا السلبية حول حلف بغداد . اما السفير بايرود ــ البعيد الان عن جو واشنطن ــ وربما ايد اوغاير وجهة نظرنا ، الا انه الح على عبد الناصر كي يحتفظ بحكمه ويفترض الاحتمال بان الاشياء ليست سيئة كما ينظرون اليها .. وان مساعدة اميركا وبريطانيا للحلف هي رمزية قبل ان تكون فعلية .

في اذار ، آنذاك ، علمنا ان البريطانيين في طريقهم الى توقيع المعاهدة وان هناك ضغط على الولايات المتحدة لتلحق بهم ، في ذلك الوقت كان بيرود يملك بعد نظر اكثر من اي واحد منا ، ولذلك اقترح علي ان اجد سببا ما واذهب الى الولايات المتحدة وهناك احاول الاتصال باصدقاء في وزارة الخارجية ومركز المخابرات واخبرهم شفهيا كم كان هو وايشلبرجر يحاولان التدقيق والامتثال بأوامر البرقيات المرسلة اليهما منذ وصول بايرود الى القاهرة .

وعندما وصلت الى واشنطن قمت بزيارة كيرميت روزفلت في مكتب المخابرات المركزية واطلعته على وجهة نظري حول حلف بغداد والتي كانت تفوق تلك التي وردت فيكتب سيل وفاتيكيوتس. ومع ان كيم لم يتفق معي كثيرا ، انما كان هناك مجال للاتفاق يدعه يقيم ما اقوله ويشجعني لاتحدث عنه في الخارج . وبعد مكالمة هاتفية ، وربما مكالمتين ، رتب لي لقاء بحضور مندوبين عن وزارة الخارجية ومركز المخابرات والذي كان سيتم ، بعد ظهر ذلك اليوم ، في مكتب الوزير فوستر دالس نفسه .

وكان جو ذلك اللقاء هو الذي جعلني اوقن بان ليس هناك واحدا ، من الكتاب العديدين الذين كتبوا او رأوا بوضوح اين كان الخطأ فيحلف بغداد، او بامكانه انيكون قادرا على التعرف على وجهة نظر صانعي سياسة واشنطن في ذلك الحين ، حتى ولو انهم ملكوا القوة على تقديم وجهات نظرهم بنفس الاقناع الذي تؤيده اقوالهم المكتوبة .

كان حاضرا في ذلك اللقاء الخاص السكرتير نفسه وبيل رونتري (الذي حل محل بيرود كمساعد لوزير الخارجية في الـ N. E. A) ، كيرميت روزفلت من مركز المخابرات ، واربعة او خمسة من الذين اعتاد كيم روزفلت ان يدعوهم « اختصاصيي الوزارة من الشباب اللامعين » ، والذين يذكرون جميع الحقائق عن جميع بلدان الشرق الاوسط ، ولا تفوتهم شاردة او واردة عن تلك المنطقة ، ومن المحتمل ان بيل افلاند كان حاضرا ، ولكني لا اذكر ، انما كان هناك ، بالتأكيد ، ممثل عن البنتاغون . وفي كل مرة كانوا يقدمون اوفر المخططات واوضحها عن استراتيجيتنا في الشرق الاوسط ونسبوا الى انفسهم جميع ما لدى واشنطن ولندن من معلومات حول استراتيجية السوفيات وقوتهم الحربية بالاضافة

الى التسلح الذري ، ومشاريع انتاج البترول لعام ١٩٧٠ ، وحالة اوروبا الصناعية ونموها ، واهداف ومخارج حلف شمال الاطلسي، وهكذا ... كانوا مهذبين جدا معي وعلى استعداد ليستمعوا الى كل ما سأحدثهم به .

ولكن ، مع ذلك ، لم استطع ان احمل نفسي على الحديث امامهم بصراحة وامضي في سرد ما لدي من معلومات عن السياسيين البعثيين ، وعن احاسيس العرب تجاه مسائل كهذه ، كمخطط نوري السعيد والذي سماه بالهلال الخصيب . هنا اناسا ينظرون الى امور العالم تحت تأثير القنبلة الذرية ، وحرب الشرق الاوسط الباردة ، ثم حلف شمال الاطلسي وحلف وارسو . كانت افكارهم عن الشرق الاوسط تتفق مع اهدافهم الاقتصادية ومواردهم ، انما تفادوا الحديث عن قضية اسرائيل التي من اجل اسباب سياسية محلية في الولايات المتحدة ، تتطلب تحفظا على جميع المستويات لاهميتها الستراتيجية .

كانت سوريا ، بالنسبة لهم ، بلدا يبلغ عدد سكانه تسعة ملايين نسمة او اقل ، وتعادل مساحته ربع نيويورك وضواحيها.. ويذكرني هذا بتجربة اخرى عندما جاء احدهم يشرح لي ، في رواندا اوروندي ، كيف يتفق « الهيبي جيبي » مع « المومبو جومبوس » وكيف ان بريق الحرب العالمية الثالثة بدأ يلمع في رواندا اوروندي ، عندئذ عرفت كيف يسمع الشيلدش ـ المحليون (وكانت هذه كلمات الجنرال بول سميث) .

وبينما كنا نغادر المكان قال لي كيم روزفلت انه سر جدا وهو يستمع الي ازأر وأزبد ، وعندما عدت الى القاهرة شعر كل من بايرود وايشلبرجر انني خذلتهم قوتخليت عنهم . كان هذا

نوع الاشياء التي حدثت .

ولكن واشنطن وافقت على ان تبقى حكومتنا خارج حلف بغداد . كان الحلف ضعيفا جدا من دوننا ، بينما استاءت الحكومات المعنية منا لاننا خذلناها . وفي نفس الوقت عرف المصريون وكل شخص آخر بان الحلف كان وليد فكر دالس وهكذا جنينا نتيجة الملامة في تلك الناحية كاحسن ما يكون . هذا ، مع ان عبدالناصر كان يستطيع أن يشكرنا ، ظاهريا ، لاتخاذنا هذا الموقف ، وليس اكثر مما كنا نستطيع نحن ان نشكر الروس على ارسالهم قوات الى تشيكوسلوفاكيا في شهر آب سنة ١٩٦٨ .

* * *

زود حلف بغداد عبدالناصر بقاعدة ممتازة ليهاجم منها المرتدين ، وخاصة بعد ان اتحدت بريطانيا مع فرنسا واسرائيل وهاجموا قنال السويس في تشرين الاول سنة ١٩٥٦ . كان هذا ، مع ذلك ، ضروريا لكي يشن عبدالناصر هجماته . وبقدر ما كان الحلف غير مرغوب فيه شعبيا بقدر ما كانت العلاقات العامة متدنية مع زعماء العراق الذين وقعوا على الحلف . والشيء نفسه يقال عن الضربة القاصمة الثانية ، عنيت بها مبدأ ايزنهاور .

كان مبدأ ايزنهاور مقدمة للعدوان الثلاثي على السويس (فرنسا ــ انكلترا ــ اسرائيل) ، وكانت احتمالات لعبة الامم واخطارها ، والتي تحملها عبدالناصر ، مرعبة ولها وقعها الاليم في النفوس ، اما الاحتمال الاكثر اهمية ، بالطبع ، كان ان السوفيات والاميركيون ، باستثناء الانكليز ، سيجرون في حملة واسعة للتعويض على المصريين والوقوف الى جانبهم ، وابرق سفير عبدالناصر من واشنطن يقول

باننا نقر بالفراغ الذي ستتركه بريطانيا نتيجة لعملها في قضية السويس وان المخططين في وزارة الخارجية جلسوا يفكرون بوضع شيء ما . كان عبدالناصر يكره كلمة « فراغ » هذه ، وكأن دولة كبرى امر ضروري على المسرح ، واذا ما غادرت هذه الدولة الكبرى فالضرورة تحتم بان تحل محلها دولة اخرى . ولكن الذي ازعجه اكثر كان في اننا تباطأنا في تحقيق الاعتمادات المصرية التي كنا قد جمدناها اثناء المحادثات الجارية حول اهداف شركة قناة السويس ، وعندما اعطينا الاجابات المبهمة على احتياجاته من القمح والادوية اجاب السوفيات، عندما طلب اليهم نفس الشيء، بان اسرعوا في التلبية ، عندئذ خلص ناصر الى ان فكرتنا «بالشعور بالفراغ » هي في طريقها لتكون شيئا غير مجاملتنا له وموافقتنا على اتحاده الايجابي .

* * *

كان عبد الناصر يملك الحق ليخاف ويترقب شرا .. اذ قفز المرتدون ، وقد عقدوا ايديهم من وراء ظهورهم ، قفزوا يقفون الى جانبه اثناء حرب السويس وقاموا بعرض رائع من المساندة .. وما ان انتهت الازمة حتى عرف عبد الناصر انهم قد كانوا مرتاعين جدا من الازمات وانه في حال تقلص نفوذ بريطانيا ، يسعدهم ان يحصلوا على نوع من المؤازرة الاميركية. كما اخبرني احد المقربين الرسميين اليه في ذلك الوقت ان السفراء المصريين في بيروت وبغداد وعمان وجده كانوا يعاملون بفتور من قبل وزارات خارجية تلك البلدان او «يستقبلون بتحفظ وتهذيب» مما جعلنا نشك في ان شيئا ما يجري هناك .. وعندما ابرق السفير المصري في واشنطن في اول كانون الثاني سنة ١٩٥٧ وقال انه يعتقد بان حكومة الولايات المتحدة كانت تعد برنامجا للاطاحة بعبد الناصر ، ولكن هذا الآخر

تأمل باننا سنأتي بشيء جديد يقلق المرتدين كما كان حلف بغداد يقلقهم .

* * *

وهكذا فعلنا .

كنت آنذاك في واشنطن ، اعمل في جمعية والتي كان مفروضا فيها ان تكون مسؤولة عن كل ما يجب ان نفعله مع عبد الناصر ، واذكر اني اتيت باكرا في كانون الثاني الى المكتب لاعلم ان « مبدأ » جديدا قد اعد ليعرقل سياسة اعداء عبد الناصر دون ان يعطيهم ما هم بحاجة اليه فعلا ليصمدوا ويصدوا الهجمات ضدهم والتي كان عبد الناصر واثقا من فعلها .

عرضت الفكـرة العامـة ، والتي عرفت فيما بعـد بمبدأ أيزنهاور ، عرضها على الكونجرس الرئيس نفسه في ٥ كانون الثاني سنة ١٩٥٧ ثم اصبحت حقيقة وبشكل دعم واضـح في اذار مـن نفس السنة . وخول المجلس الرئيس ايزنهاور بان يبعث بجنود اميركيين للدفاع عن اي بلد شرقي مهدد « باي اعتداء مسلح مـن اية دولة تهيمن عليها الشيوعيةالعالمية ويقدم اية مساعدة اقتصادية وعسكرية تطلبها تلك البلدان لبناء دفاعها الخاص » .

* * *

وحتى ذلك اليوم لم اعرف من اثار الفكرة وربما كـان دالس نفسه ، او ربما كـان شخص آخر هـو بيل رونتري . وكل ما اذكره ، بوضوح ، هو انه لا « الهيئة التي تقرر سياسة الشرق الاوسط » الخارجية والدفاع والمخابرات المركزية ــ ولا التقارير

الرسمية الصادرة عن مكتب الشرق الاقصى وشؤون افريقيا ، كلها لم يكن باستطاعتها ان تفعل شيئا معه . وكان كل منا مستعدا لان يصدق بان للمشروع معنى وتأثير في السياسة المحلية ، انما لن يكون له اي اثر في العالم العربي قاطبة .. فهو سيموت حيث ولد ، وكما ذكر ، لم تكن الآراء ، في الشرق الاوسط ، متفقة حوله ، وعندما سئل ممثل المخابرات المركزية في « الهيأة التي تقرر سياسة الشرق الاوسط » : « هل سترسل شخصا بمفرده ليشرح هذه البادرة الجديدة لرؤساء الدول العربية ؟ » اجاب : « لا نحتمل زج انفسنا مع كل مخطط يأتي بمفرده » .

لم يكن عبد الناصر مسرورا فعلا من هذه الاخبار ، وحتى بعد انجاء من نقل اليه مؤكدا بان ايزنهاور عندما قال : «... وكل دولة تسيطر عليها الشيوعية العالمية » من المحتمل انه عني مصر بحديثه .. ولكنه شعر بنوع من السرور يحس به كل من يشاهد لاعبا ، خصمه ، يتحرك نحو الخطأ . وكما اخبرني مؤخرا ، ان المظهر الوحيد لمبدأ ايزنهاور الذي هداه كان توصية احد رجال الكونجرس ، جيمس ريتشارد ، بان تحمل الاخبار المسرة الى كل من كميل شمعون والملك حسين والآخرين . وجاء اختيار مبعوث الى الشرق الاوسط يحير الدول العربية وخاصة عبد الناصر ، وهذا ما جعله يشك ان في الموضوع شيء من الماكيافيلية وانه سييأس منه .

اخبرني مرة فقال : « ان عبقريتكم انتم ايها الاميركيون تكمن في انكم لا تقومون بايضاح الحركات الحمقاء انما تعقدونها مما يجعلنا نخسر .. » .. وكان مبدأ ايزنهاور ، الذي استقر رأيه على انه مخطط قام به دالس ، كان بالنسبة له اكبر غلطة يمكن ان يرتكبها وزير خارجية دولة كبرى .

اقترحت الدعايات السوفياتية ان الاميركيين هم ضلع في المؤامرة التي اعدتها كل من بريطانيا وفرنسا واسرائيل . كان دورهم اشبه بالبوليس الجيد الذي يحاول طرد اليأس من نفس سجين غذاه بوليس سيء . وانصرف راديو القاهرة يعطي من عندياته « واستنادا الى معلومات وثيقة من مصادر شرقية » ، ويؤكد على ان الولايات المتحدة تعد حملة لاستعباد العرب وتقسيمهم . واننا نعتمد على عملائنا في مختلف الحكومات العربية ليقوموا بتنفيذ الحملة .

وفي الايام المبكرة لحرب عبد الناصر مع المرتدين لم تكن اعماله ضد الاشخاص بقدر ما هي ضد الافكار : كان هدفه خلق مواقف جماهيرية ـ هكذا دعتها ابواقه الاعلامية ـ والتي من شأنها ان تخيف المرتدين وتحملهم على الطاعة والخضوع .

لم تنجح الاعمال هذه كليا انما سارت شوطا بعيدا نحو النجاح ، واخيرا علموا الشعوب العربية كيف تعترف بالمرتد عندما يكون هناك مرتد ، ولينظروا الى نوري السعيد في العراق وشمعون في لبنان والملك حسين في الاردن ويعتبروهم كمرتدين قبل ان يقفوا ضدهم .. واخيرا وجد عبد الناصر انه من الافضل ايقاف الحملات وتوجيهها نحو اهداف خاصة .

* * *

ولعل المرتد ـ الاجرب ـ رقم واحد ، في لائحة عبد الناصر، كان رئيس وزراء العراق نوري السعيد . ولكن الاطاحة بنوري تتطلب وقتا طويلا وستكون العملية اسهل اذا تم عزله .. هذا ، وقبل الاعلان عن مبدأ ايزنهاور كانت الافضلية معطاة للمرتد رقم

٢ : الملك حسين ، ملك الاردن .. ومع ان هذا الاخير كان اقل اهمية من نوري السعيد ، ولكن حسين ، تفوق عليه ، في نواح عديدة ، من حيث التشويش والازعاج . وعندما ارسلت بريطانيا، في كانون الثاني سنة ١٩٥٦ ، السير جيرالد تمبلر الى عمان ليقنع الملك حسين بالانضمام الى حلف بغداد ، بعث راديو القاهرة بنداء قلب الوضع رأسا على عقب وتسبب بحوادث دامية في الاردن ادت الى سقوط الحكومة . وفي الاشهر التالية قام المصريون بتدريب الفدائيين الفلسطينيين الذين بدأوا مهاجمة اسرائيل انطلاقا من قواعدهم في الاراضي الاردنية مما جعل هذه الاخيرة تهاجم الاردن فيتأزم الوضع ويزيد في قلق وحيرة الملك ... فجعلت هذه النشاطات الملك حسين يتروى في اتخاذ مواقفه واعلن بعد شهرين انه لا ينوي الانضمام الى حلف بغداد ثم أقال الجنرال غلوب باشا وعين مكانه الجنرال علي ابو نوار ، احد المؤيدين البارزين لعبد الناصر .

وفي حزيران حل البرلمان واجرى انتخابات عامة في تشرين الاول اعتبرت نصرا عظيما للمرشحين الناصريين .

* * *

اصر المصريون الرسميون ، في ذلك الوقت ، على انهم لم يبعثوا بشخص من اختصاصييهم الى الحث على الاضطرابات في الاردن ، في تلك الحقبة العصيبة .. ولو كان ذلك حقيقة ، كما يبدو انه ، فمعنى هذا ان معالجة ناصر لهذا البلد المرتد ، كانت من الدرجة الاولى . اما مؤيدوه فكانوا يرفضون كل تساهل وهم من اللاجئين الفلسطينيين .. وكان مناوؤه ضباط الجيش الاردني وبقية الانتهازيين السياسيين. كانت طريقة عبدالناصر غير مباشرة

للنيل من جميـع هؤلاء ، فجاء الجنرال علي ابو نوار الى القاهرة ـ كانت هذه بادرته الخاصة ـ ليعلم اذا مـا كـان عبد الناصر سيساعده في حال نجاح الانقلاب المزمع قيامه ـ كان ابو نوار يأمل ان تكون المساعدة اكثر فعالية مـن تلك التي قدمها اعضاء حلف شمال الاطلنطي للثوار الهنغاريين وشجعوهم علـى الثـورة سنة ١٩٥٦ .. وسمح لابي نوار بان يخبر سليمـان النابلسي ، رئيس وزراء الاردن الناصري والذي تسلم زمام الحكم في حزيران ، بان راديو القاهرة سيقدمه الى العالم العربي كبطل . وفي حركة اخرى، والتي كانت تستند الى تكتيك ناصري خاص ، استطاع عبد الناصر ان يزرع الشقاق بين العائلتين الحاكمتـين في السعودية والاردن وذلك ليحمل الملك سعود على مساعدة العناصر المناوئة للملك حسين .

* * *

وهكـذا انحنى الملك حسـين امـام الضغـوط الكثيـرة : الفلسطينيون، والاسرائيليون والسعوديون، واخيرا راديو القاهرة . وجاء الى القاهرة يجتمع الى عبـد الناصر والملك سعـود ورئيس وزراء سوريا صبري العسلي ويوافق على توحيـد امور الدفاع ، ويمكن الاردن من الاستغناء عن المساعدة المالية الانجلو ـ اميركية ، وبالتالي ليبقى خارج حلف بغداد . وانضم الملك الى الاتحاد .

وفي غضون ذلك الوقت كانت الحكومة السورية تقـدم نوعا آخر من المغامرة وتناور على مستوى رفيع : فهي لم تستقل كليا عن الدول الغربية ، انماكانت تقوي من وضعها تجاه السوفيات . كانت سوريا متكاتفة جدا لتنضم الى الجبهـة الناصرية المشتركة وتتعامل مع الغرب . ولكن هذا من الامـور الصعبة جدا . كانت استراتيجية عبد الناصر تتطلب من العرب الابقاء على جبهة موحدة مع كلا الجانبين .

والفكرة الهامة الكبرى ، بعد كل هذا ، اللعب على طرف ضد الطرف الآخر .

***

في سنة ١٩٥٤ ، اتحد حزبان سوريان ـ على نقيض من الآراء والايديولوجيات المبهمة ـ والفا ما يعرف اليوم بحزب البعث. فالبعث ليس بحزب شيوعي ولكنه يستخدم كاطار للعمل على تنمية الشيوعية في سوريا ، وعندما برز البعثيون في انتخابات سنة ١٩٥٤ ، ربح الشيوعيون مقعدا او مقعدين بما فيهم واحد لخالد بكداش زعيم الحزب الشيوعي السوري منذ منتصف عام ١٩٤٠ والذي طرد من البلاد اثناء حكم حسني الزعيم .

اخبرني ذات يوم : « اننا ضد كل شيء ، ضد الصهيونية والامبريالية والاتراك الذين استولوا على مقاطعة الاسكندرون ، وضد الهاشميين (الملك فيصل فيالعراق والملك حسين في الاردن) ».

وكأي بلد آخر ، اثناء اعلان مبدأ ايزنهاور ، كانت سياسة سوريا موالية لمصر ، انما مستقلة عنها . ولكن منذ ان طلب اليهم عبد الناصر الانضمام الى الوحدة ، تغيرت اللهجة وباتت غير مقبولة . كان هذا عندما اعلنت روسيا بصراحة ، في منتصف عام ١٩٥٥ ، انها ستهب للدفاع عن سوريا ضد اي دولة وقعت على حلف بغداد ، اما عبد الناصر فكان يحتدم غيظا . وعندما اعلن وزير الخارجية السوفياتية ، مولوتوف ، في آذار ١٩٥٥ ، « ان روسيا تدعم الموقف السوري وهي على استعداد لتمد اليها يد المساعدة باي شكل كان » ، عندئذ كانت صحف القاهرة تشن حملة عنيفة ضد روسيا ، واعتبرت الحملات اعنف من تلك التي شنته ضد اعضاء حلف بغداد .

اما لعبة الامم في الشرق الاوسط ، فكانت اشبه بلعبة المثلثات : يحاول المصريون اللعب على السوفيات ويثيرونهم لمصلحتهم الشخصية وكذلك الاميركان ، وهؤلاء الآخرين يحاولون اللعب على الناصريين العرب (التقدميين) ويثيرونهم ضد مناوئي الناصرية (الانهزاميين) . يحاول الروس اثارة المصريين على السوريين . والسوريون يحاولون اثارة المصريين على الروس . وباستثناء مصر ، كانت هذه الألاعيب تكتيكية ولا فائدة منها أكان هنا ام هناك. كان هدف مصر من كل هذا اساسيا واستراتيجيا.

وخلال عام ١٩٥٦ كان الروس والسوريون يعملون على تقوية العلاقات فيما بينهما وجعلها اكثر متانة وقوة ، وسبب امتداد هذا النفوذ تخوفا لدى عبد الناصر وجلب له مشكلة جديدة اضافها الى مشاكله القائمة مع اعضاء حلف بغداد ، المؤيدين لسياسة الغرب .

تشاور عبد الناصر مع اصدقائه الاميركيين حول التعاون ليسد الثقب في الجبهة الشرقية ، بينما كان يتشاور مع الروس في مسألة سد الجبهة الغربية والتي اصبحت خاوية كالمنخل . وبقدر ما كان مفهومنا لهوية اللعبة ، بقدر ما كنا قادرين على مبادلة الافكار مع عبد الناصر حول موضوع سوريا بينما نستمر في العمل على اضعاف وحدته مع البلدان العربية الاخرى .

* * *

لم يكن عبد الناصر ـ واقولها بصراحة ـ يرغب في ان يناقش معنا احتمال توحيد العمل ضد سوريا ، ولكنه وجد الامر مهما في اننا عرفنا امتداد التردي هناك ، ذلك الامتداد الذي كان الروس

يستغلونه ، وانه من الضروري ، ايضا ، ان نصرف النظر عما اذا كنا نعد انقلابا لانه يعتقد تماما ، ان هذا لا يسوي الامور بل يزيدها ترديا ويقودها من سيء الى اسوأ . كما اكد له اصدقاؤه الاميركيون اننا لا ننوي ، فعلا ، التدخل في شؤون ذلك البلد .. ولكن اخبرناه ان لدينا معلومات تفيد بان الروس يريدون احداث قلاقل في البلاد حتى يفلت الزمام من يد السلطة الحاكمة مما يتيح لهم التدخل لتهدأة الاوضاع ، وهذا ما فعله الاميركان في لبنان ، بعد سنوات قليلة من الفترة التي نتحدث عنها .

وصدق عبدالناصر ما اخبرناه به عن النوايا السوفياتية، ولكنه لم يصدق ما اخبرناه به عن نوايانا الشخصية. كان هناك الكثير من الاخذ والرد لاثارة شكوكه : فقد زار لوي هندرسن ، الذي كان آنذاك نائبا لوزير الخارجية وبعدها سفيرا لنا في ايران اثناء عملية « آجاكس » ، زار هذا المسؤول تركيا لكي يعد للقاء بين اعضاء حلف بغداد ، ثم زار ، سريا ، بيروت ليرد بعض الزيارات غير الرسمية لاصدقائه السوريين .. وقام دالس فادلى بتصريح اعرب فيه عن قلقه حول الوضع في سوريا ، كما اكد الرئيس ايزنهاور ان سوريا ـ الدائرة الان في فلك الشيوعيين ـ ستهاجم جيرانها ـ انه تصريح مبهم ولا شك ، على ضوء ما نعلمه بالضبط عن القوات السورية ومدى استعدادها لخوض الحروب ، كانت هناك تحركات قوى عسكرية تركية على الحدود السورية ، وبدأ العراقيون والاردنيون ، الذين ارتدوا فجأة الى سابق عهدهم ، بدأوا باعداد الترتيبات الحربية ، وفي جو كهذا ، قام اولاد عم روزفلت ، كيم وارشي ، بزيارة الى بيروت واجتمعوا الى شخصيات مختارة من سوريا والاردن والعراق والسعودية .

وعلى اثر هذا ، ابرق عبد الحميد غالب ، سفير مصر في

بيروت ، الى القاهرة يقول : « ان الاميركان يعدون مؤامرة ما » ، ولكن كانت هذه اكثر الاجتماعات علنيــة ولم تحظ باي نوع من السريه ، وذات يوم ، التقيته في فندق سان جورج فقــال لي : عندما يأتي يوم الانقلاب الذي تعدونه ، هل ستبيعون تذاكر ؟

وكانت ردود الفعل الاولى عند عبدالناصر على كل هذا هو ان يتريث ولا يفعل شيئا .. ويعود السبب الى سعة تفكيره في انه اذا ما اتخذ جانب هذا وتخلى عن ذاك لتردت الاحوال .. بل فضل ان يدع الاميركان يعملون كما يبدو لهم ، وكان على علم بان الروس يراقبون الامور عن كثب وسيعرفون متى تحــين الفرص للعمل ، لذلك اراد البقاء على حدة يتطلع الى الفريقين يتصارعان على بسط نفوذهما وربح المزيد من الاصدقاء والمؤيدين .

* * *

اخبر السفير ريموند هير ، الذي حل محل بيرود في القاهرة ، اخبر عبد الناصر بان حكومتنا « تهتم جدا » بسوريا ، ولكنها لا تعد مخططات عدائية ضدها ، كما اخبرته انا شخصيا ، فيما بعــد ، نفس الشيء ـ بناء على طلب من رئيس فرع المخابرات المركزية الاميركية في بيروت الذي قال انه ربما كان هنــاك احراجا بسيطا لو اني اغتنمت الفرصة ، في زيارتي المقبلة للقاهــرة واخبرت عبد الناصر اننا لا نخطط لشيء على الاطــلاق ، وعليه ان يقلــق من النشاطات العدائية السوفياتية في سوريا وليس مــن النشاطات الاميركية .

ويظهر ان ناصر قبل هذه التطمينات . كان انطباعي في ذلك الحين ، مع اننا القينا اللوم علــى سوريا التي كانت مستقلة عن

اتحاد عبد الناصر ، هي ان قلقنا حـول السوفيات سوف يجعل عبد الناصر غير مستعد للمساومة معنا ، طبعا ، ولا حتى مـع الحياديين الايجابيين وان ما سيقدمه للعالم العربـي افضل بكثير مما رأيناه نحن . كان نوري السعيد في وضع عال جدا ، واخيرا كان الملك حسين ، وحده ، يلعب مع عبد الناصر مع انه غير مطمئن الى ان اتحاده معه سيحرره .

استاءت بريطانيا وثارت من قوة نفوذ سياسة عبدالناصر وتأثير زعامته حتى في بلاد الماو ماو ، ولكن السياسة ، في نظر الكثيرين من العالم ، وجدت مبررا لها عندما هرب جوموكينياتا من السجن ليصبح اول رئيس وزراء لكينيا المستقلة . ان جميع هذه النشاطات يجب ان تخدع المراقب الجاهل فيفترض وجود الطموح وان الامور تسير بدون تناسق فيما بينها وخاصة بعد ان تمت في الوقت الذي كـان عبدالناصر يستعد لزيارة كل من جزيرة بريوني ومونروفيا وتونس واكرا واديس ابابا وكازابلانكا والدار البيضاء وبلغراد وانها ستؤزم قضية مصر المشتركة مع البلدان الاخرى في حالات مشابهة . ونؤكد هنا على المسألة هي ان الاثر الناجـم عن نشاطات كهذه في عالـم الصحافة ، وبالتنبه الى الدول الكبرى ، كان لا يتناسب والتكاليف الزهيدة المترتبة عنه .. كما انها تجعل ناصر غير قادر على جنـي الفوائد التكتيكية ، عندما بدا انه سيفشل في الوصول الى اهدافه المنتقاة . ولكي نعطي امثلة دقيقة، نقول ان عبد الناصر اجل القيام بزيارة الى بلدان افريقيا ليحرضها ضد اسرائيل، انما نجح في اجتذاب تأييد الافرو ـ أسيويين له في تقديم الحلول في الامم المتحدة وفي اي مكان آخر وادان الامبرياليه والاستعمار وهذا ما جعل الدول الكبرى الثلاثة ـ أميركا وبريطانيـا وفرنسا ـ تتودد اليه وتتقرب منـه وتنتهج سياسة موالية لمصر في محاولة للسيطرة عليه .

***

ان حظ عبد الناصر اوفر في الارتكاز على المحيط العربي لبناء اتحاد فعلي . فهذا المحيط يحتاج فعلا الى اتحاد ناجح . وهنا ، كذلك، كان قسم من اللعبة التي كانت ستبدأ من الصفر وترتكز على نظرية كلا الجانبين . وهناك تفهم اقل احتمالا حول قضايا الصراع اكثر من اي صراع آخر يجري اليوم في العالم . ومرة ثانية تتعرض اهداف ناصر الاتحادية للبلبلة والفوضى .. وكما قلت ، سابقا ، ان ناصر ليس عربيا ، ولم يكن يملك اي حنو نحو العرب كذلك، كما لم يفكر ان يزج نفسه في مشاكسات حكام العالم العربي .

ان القومية العربية قوة بالغة الاهمية في تخطيط عبدالناصر للامور ولكن اهميتها تكمن كأسطورة وليس كحقيقة .

***

وقبل المضي قدما في البحث سأعمد الى بحث الافتراضات التاليـة :

أ ـ اللغة :

ربما كان الجواب العام ، على اسئلة كثيرة حول : «من هو العربي ؟ » ، كان : العربي هو كل من يتحدث العربية كلغة ام .. والحقيقة ، قبل كل شيء ، هي ان العرب يملكون لغة مشتركة على نمط اللغة اللاتينية التي عرفت في العصور الوسطى في اوروبا . فالعربية الكلاسيكية ، اي المكتوبة ، تفهمها الاقلية المثقفة ابتداء من مراكش حتى العراق ، وهي تعطي كذلك ذات النسبة لبقية اللهجات العربية المحكيـة تماما كما كانت اللاتينية ، في العصور

الوسطى ، بالنسبة للايطالية والبرتغالية والاسبانية والرومانية. ان سائق سيارة ـ تاكسي ـ من بغداد لا يستطيع ان يجيدحوارا ذكيا مع سائق آخر من تونس مثلا ولا حتى من القاهرة . واذا استطاع مثقف بغدادي ان يتحدث الى مثقف تونسي ،فهذا يعود لكونهما يعرفان الكفاية عن لهجة كل منهما، ويجيدان اللغة الفصحى التي تجعل للكلام معنى .

***

٢ ـ الثقافـة :

وبتحديد اوسع لكلمة « عربي » ، نقول ان هـذه يجب ان تتضمن بعض الاشارة الى ثقافة مشتركة . هناك ، طبعا ، تشابه بين ثقافات البلدان العربية المختلفة والتي تأتت او حصلت مـن نتيجة انتشار الديانة الاسلامية ولكن هـذه التشابهات يتقاسمها ملايين المسلمين الذين يعيشون خارج العالم العربي ، كما هنـاك تقارب موسيقي سطحي يضاف اليه تشابه في الاطعمة . وهـذا ينشأ من تأثير السينما المصرية ومن المطاعم اللبنانية المنتشرة فـي مختلف بلدان الشرق الاوسط وافريقيا . واذا ما نحن استثنينا هذه التشابهات ، لوجدنا فرقا شاسعا بين سكان القرى العراقيين وقبائل البدو ، بين سكان المدن اللبنانية والفلاح المصري وبين بقية البلدان العربية كما نجده ، تماما بين مختلف مجتمعات العرب .

ان الدروز والشيعة والاكراد والاشوريين وجميـع المذاهب المسيحية واليهـود والارمن وجميـع الفئات السنيـة ، انهـم جميعا يحاولون التغلب على بعضهم البعض ويدافعون عن عاداتهم المحلية والمكبس والزواج والعلاقات العائلية . ونراهم يعانقـون

بعضهم ويختلفون في امور عديدة انما يتفقون حول الاقلام المصرية وصوت ام كلثوم .

***

٣ ـ العرق :

ان نظرة واحدة لسوداني شديد السواد يقف وراء لبناني ابيض ، او الى عراقي داكن البشرة ، او الى سعودي ـ العربي الحقيقي ـ تكفي لنرى ان العرق العربي ما هو الا فكرة مزيفة تماما كما هي فكرة العرق اليهودي . ان اغلبية سكان شبه الجزيرة هم عرب اقحاح ، ولكن المصريين ـ زعماء العالم العربي ـ لا دم عربي فيهم ولا اللبنانيين والسودانيين وجميع « عرب » شمال افريقيا . وهذه وجهة من العروبة التي لا دخل لنا فيها ولا تعنينا .

***

٤ ـ الاطماح السياسية :

قال لي صديق عربي شهير ان كلا منا يقوم بدور بناء في مجتمعه ، كبناء جسر او ترقيع حذاء أو خبز دقيق .. وكل من يقوم بهذا هو ـ في عمله ذاك ـ سوري أو مصري أو لبناني ..ولا فرق أكان خبازا أم مهندسا أم طبيبا . اما عندما يقوم باعمال هدامة فهو اذا عربي . واتفاقا مع طبيعته ومستواه . واستنادا الى مصالحه الاقتصادية نرى الوطنية تحركه وكذلك الاخلاص لحكومته الخاصة، وعندما يتشكى من اسرائيل أو الاستعمار ، أو عندما يصب جام غضبه على سفارة اجنبية ، نرى القومية العربية وراء كل هذا . اي انها هي التي تسيره وتدفعه .. وهذا يظهر

واضحا في تصرف بعض الدبلوماسيين الاجانب المعتمدين حديثا لدى بعض حكومات الدول العربية .. فهو حيثما ينتقل يسمعهم يتحدثون عن الاطماح السياسية والوحدة العربية واخواننا العرب ولكنه لم ير بعد اندفاعا نحو انشاء اتحاد عربي او سوق عربية مشتركة او اية دولة عربية موحدة ولا حتى وحدة فيدرالية .

***

وهكذا — وكما تحدثنا في فصل سابق — نرى ان مفهوم ناصر للعالم العربي كان محدودا عندما قبض على هذه الدائرة الخاصة .. ولم يكن ذلك مهما بالنسبة لاهدافه . اراد ان يقنع زعماء دول العالم العربي انهم سينالون معاملة احسن مع الدول الكبرى اذا ما هم استطاعوا تنسيق سياستهم الخارجية ودون أن يلجأوا الى عقد الاتفاقات الشخصية مع هذه الدول بطريقة قد تضعف الجبهة العامة .. بالاضافة الى ذلك ، اراد عبدالناصر ان يقوي الاسطورة العربية ليحد من مثل هذا الامتداد وان كل زعيم يضعضع الجبهة سيبدو كمخرب خطير .. ويكون ذلك سهلا بما فيه الكفاية لكل من يحاول ان يفهم كيف عمل ناصر ، دون شروط مسبقة ، وكيف قرر اتمام هذين الهدفين دون ان تكون لديه المعرفة الكافية عن مختلف البلدان العربية او يكن لهم أي تودد .

اعتنق في البدء المشاريع التي تعود على مصر بالخير العميم اما العمل من أجل مصلحة الآخرين فيأتي فيما بعد ، واحيانا كثيرة يكون عرضيا ، يفرض نفسه بنفسه .

عندما وصلت الى مصر في تموز سنة ١٩٥٣ ، لم المس لدى أحد شركاء ناصر — وكنت قد قابلتهم جميعا — من يهتم بقوة مصر

كزعيمة لاتحاد عربي أو أي نوع آخر من الاتحادات . وأستاءناصر لمعرفتي باحوال الدول العربية الاخرى وخاصة سوريا . وبالفعل، أظن أن مافي جعبتي من نكات حول انقلابات سوريا ــ التي كانت تتم أو تمني بالفشل ــ جعلني شخصية غير مرغوب فيها بين أوساط عبدالناصر . فقد سر عبدالناصر جدا يوم تحدثت اليه عن محاولة حسني الزعيم الانقلابية . حاول حسني الزعيم ان يحصل على مساندة احمد الشرباتي وزير الدفاع وفوزي القاوقجي قائد المحاربين الفلسطينيين الاحرار ، بعد لقاء سري تم عشية المؤامرة، وبعدها ذهب كل من الثلاثة الى شكري القوتلي ، رئيس الجمهورية يشي بالاثنين الاخرين .

كان الانقلاب مصريا مئة بالمئة ، ولم يفكر اي من زعمائه، الذين هم دون ناصر قوة ، فيه كأي شيء آخر .

***

وفي نهاية ذلك العام ، من جهة ثانية ، اكتسبت فكرة الاتحاد ــ اي نوع من الاتحاد ــ اكتسبت قوة كبرى وتقاربا مع الدول الكبرى وبرزت الى الصف الامامي . ربما كانت لا تزال تختمر في مخيلة عبدالناصر دائما ، وليس لي علم بذلك ، ولكنه ، في كانون الاول سنة ١٩٥٣ ، دعا اليه السفراء المعتمدين لديه ، واطلعهم بحضور قواد الثورة ، ثم اخبرهم ان يتطرقوا الى السياسة الخارجية التي سوف تقسم الى قسمين ، سياسة تجاه تلك البلدان التي كانت تعيش في نفس الظروف والتي يقاسمها ذات الاهداف، ثم سياسة اخرى تجاه البلدان الباقية التي سوف تكون هدفا للبلدان الآتية : الولايات المتحدة ، بريطانيا ، فرنسا ، الاتحاد السوفياتي ، اليابان ، وبلدان غربي اوروبا . وتجاه البلدان الاولى

ستكون التأكيدات على ربح المزيد من التعاون وتجاه البلدان الاخرى سيكون التأكيد تصارعا فكريا ، وليس عدائيا .

***

وفي مثل هذه اللقاءات ، التي استمرت حتى آخر كانون الثاني ، نوقشت سياسة « الحلف العربي » وكان من أجل حماية مصالح الشعوب الاسلامية في آسيا وافريقيا . ويتضح لنا موقف عبدالناصر في الموضوع من اجابته على سؤال أحد الذين حضروا الاجتماعات .. اذ سأل احدهم : ولماذا لا يكون اتحادا شمال افريقي – أي مصر وليبيا والجزائر وتونس ومراكش ؟ واجاب عبدالناصر انه اذا كانت التخوم الجغرافية هي التي تعنيه فان المغرب هو صاحب الافادة واستطرد ناصر يسأل : ولكن ماهي القوة الجديدة التي سنكسبها من ذلك ؟ فعرب الشرق يملكون البترول وطرق النقل والقضية الفلسطينية ، ان كل هذا يهم الجانبين معا : الدول الغربية والسوفيات .

ويتحدث باتريك سيل عن يوم ٢٣ تموز سنة ١٩٥٤ عندما اعلن ناصر، رسميا، مصر كبلد عربي – واني اميل الى تصديقه . في ذلك اليوم ، العيد الثاني للثورة ، وقف عبدالناصر يقول في خطابه السنوي :

أيها المواطنون :

لقد بدأت مصر عهدا جديدا في علاقاتها مع العرب ، عهدا مبنيا على الحقيقة والاخوة الصريحة .. ان هدف حكومة الثورة

هو ان تجعل من العرب دولة واحدة ، تماما كما يتضامن الابناء من أجل الصالح العام .

***

كانت فكرة حسن التهامي تقوم على بناء قاعدة، تشبه السفنكس، والتي ستتكون ما تمثالين في الجزيرة تجاه المكان الذي سيشاد فيه يوما فندق هيلتون . وجد ناصر ان المبلغ يجب ان يستعمل في شيء آخر يجلب الانظار ويعود على البلاد بالفائدة .. وكانت النتيجة هي بناء « برج القاهرة » الذي نراه نحن ، اصدقاء مصر، عبر النيل ، عندما نجلس الى تناول طعام الفطور على شرفات فندق هيلتون .

واذا كانت حكومتنا قد تأخرت في تسلم الرسالة ، فذلك يعود الى انها طلبت وقتا ما لتخطيط وإقامة البرج الواسع ،كما اشار حسن التهامي الى ذلك ودعاه .

تسلم كيرميت روزفلت الرسالة بعد اشهر قبل ان ترتاح حكومة الولايات المتحدة ويعود الفضل في ذلك الى احد عملاء الاستخبارات الاميركية العاملين في مكتب عبدالناصر ، مدعيا ان مساعدات ناصر تهدف الى البرج كوقف لروزفلت .

كان اهم ما في القضية أن المساعدات الشخصية التي قدمناها لعبد الناصر منبعا للتذمر من كلا الجانبين . لم يفكر ناصر وضباطه ، وخاصة الاخير منهم اي التهامي – في ان المساعدة غير كافية ، اما رجال الكونغرس وكبار موظفي الخارجية الاميركية فقد رأوا العكس : اي ان المساعدة كافية ولكن عبدالناصر لم

يحسن تقديرها . فقط عبدالناصر وموظفان آخران من خارجيتنا فهموا ماذا حدث بالضبط .

***

اخبرني احد صغار موظفي الخارجية الاميركية ، آنذاك ، والذي حمل المشروع من دائرة الى دائرة بحثا عن المساعدةالضئيلة لمصر والتوقيع عليها ، اخبرني ان احد الرسميين فيوزارةالخارجية قال له بالحرف الواحد ، « سوف لن نتعامل مع ناصر أذا ما صرف اهتمامه الى مصرفقط وتمنع عن التدخل في شؤونالبلدان الاخرى » .. قال هذا ووقع عريضة المساعدة المقترحة .

كان هذا موقف اميركا . وبقدر ما كان ناصر يتدخلفيشؤون البلدان الاخرى ، بقدر ما كنا نحن على استعداد للمزيد من العطاء والمساعدات . وبقدر ماكان وزير خارجيتنا دالسوآخرون في الحكومة يتحدثون عن الحياد وعدم اخلاقيته ، كنا نحن ـ المخابرات ـ يحركنا الحياد اكثر مما تحركنا الصداقة ، كما حصل لشاه أيران وكميل شمعون ، رئيس لبنان ، والملك حسن ملك الاردن والامبراطور هيلا سيلاسي وتعلموا من احزانهم . امتعض ناصر من سذاجة هؤلاء الحكام كما أمتعضوا هم من سلوكنا . نظر عبد الناصر الى اجوبتنا فوجدها واضحة وفكر كرئيس يود اقامة اتحاد واسع المدى ان بامكانه الحصول على اجابات مفيدة اخرى .

***

ولكن ناصر فكر بوضوح وكما يبدو من وجهة المساعدة

الاميركية ، وكما رآها عبد الناصر ، فان مدى تأثيره على اهم منابع المساعدات الخارجية ـ اميركا والاتحاد السوفياتي ـ ذهب بنسبة هندسية كما ارتفع تأثير وحدته بنسبة حسابية .. فاذا تحدث الى مصر يحصل على قسم من النتائج ، اما اذا تحدث الى العرب فتكون النتيجة مربعة ـ واذا تحدث الى العالم الاسلامي لكانت النتائج مضروبة بذاتها ثلاث مرات واربعة اذا ما تحدث الى الشرقيين عامة .

.. ولا لضرورة في ان يتحدث هو في الحالة الاخيرة انما الاخيرة انما يكفي ان يجعل من ذاته « مفتاح » تأثير ، او نقطة تركيز ، والتي ننظر من خلالها نحن والروس الى مصالحنا بدل ان نميل الى منافسيه في المضمار الوحدوي كسوكارنو ونكروما.

وفاق ناصر سوكارنو ونكروما ، وكذلك تفوق على نهرو وتيتو وجميع الذين نادوا بالحياد الايجابي ، لانه كان ـ كما اعتاد مساعد وزير الخارجية فيلبس ثالبوت ان يسميه ـ صعبا ولكن يسهل التعامل معه .

***

ولم يكن الحياديون الايجابيون الاخرون يتمتعون بنفس النفوذ خارج دوائرهم الخاصة ، كما لم يحدث لحكومتنا ، مثلا ، ان استشارت سوكارنو كيف سيستعمل نفوذه كحيادي ليخفف من حدة انتشار الشيوعية في بلدان آسيا ، وكذلك لم يطلب اليه السوفيات ان يفصح عن ميوله ويساعدهم ، ايضا ، على تحقيق اهدافهم في آسيا . ولكن عبدالناصر نجح في جر الطرفين الى استشارته حول عدة بلدان في العالم الافرو ـ اسيوي وخاصة

حول فيتنام، سوريا واندونيسيا، حتى انهما استشاراه ، بطريقة غير مباشرة ، حول اسرائيل بالذات . (اوضح له الرئيس كندي، في مطلع عام ١٩٦٢ ، وقبل ان تزود أميركا اسرائيل بصواريخ هوك ، اوضح له واستطاع ان يقنعه بانه تحت وطأة الظروف الحالية لا تستطيع اميركا ان تتصرف بشكل آخر) . كما ان الرئيس جونسون ، في بعض حالات اليأس تساءل : « آمل ان يكون لنا في القاهرة سفير لا يعرف ، مطلقا ، اين تقع فيتنام . ثم ارسل ، بعد اسبوعين ، افاريل هاريمان الى القاهرة ليستجدي مساعدة ناصر ويخفف من غضب فيتنام ضد طيارينا العاملين هناك .

***

وعندما قال ناصر في كتابه « فلسفة الثورة » ان مصر تقع عند مقطع ثلاث دوائر (العالم العربي والاسلامي وافريقيا) ، كان فعلا يساعد على انشاء الاسطورة الوطنية .. وعندما تخلى عن ممارسة وحدته الاستراتيجية في لعبة الامم ، كان لا يهتم بالوحدة الجغرافية بقدر اهتمامه بربح الانصار وتوسيع رقعة النفوذ . وتحت حالات معينة لم تكن كوبا تقل فائدة على ان تكون حليفا في المستقبل كما كانت الباكستان ، ولكن غرب افريقيا كان اكثر فائدة من اي قسم افريقي آخر قريب من ناصر . وبالفعل كان من المفترض ان يكون نفوذ ناصر قويا في تلك المناطق غير المحببة والتي جعلت بعض دبلوماسيينا يفكرون جديا في الامر وان يفكروا فيه « كعامل يجدر التعامل معه الآن وليس في المستقبل » .. وكانت فكرة ناصر الشخصية هي المفضلة والتي تقول : ان التظاهر بحرب النفوذ ومزاولتها ، اسهل من ربح النفوذ الحقيقي والتي لا شك انها تتضمن مخاوف ومتاعب كان الافصاح عنها يقلق ناصر.

ونذكر هنا احد الاحلام التي كانت تراود عبدالناصر وتتطلب مسؤولية ادارية كبرى .. ويتحدث الكتاب المسؤولون والصحافيون والمؤرخون في مذكراتهم عن ان ناصر كان يحلم باقامة « امبراطورية افريقية » او يقولون : « من طموحه أن يحكم العالم العربي . كما سمعت انا احد المسؤولين في حكومتنا يقول : « اذا كان عبدالناصر يحاول ان يحكم العالم العربي فلا شك انه يسير في الطريق الخاطىء » بينما يعلق مسؤول آخر بقوله : « لا يبدو ان ناصر يسير في الطريق المؤدي الى حكم العالم العربي » . اني اصدقه وأؤمن به ، لان ما من مسؤول اميركي وخاصة نحن الذين تعاملنا معه فترة طويلة (كيرميت روزفلت ، روبرت أندرسون ، اوجين بلاك وشارل كريمس ، يضاف اليهم سفراؤنا في مصر) ، كلنا لم نلحظ لدى عبد الناصر اي ميل وطموح في تحقيق فكرة الهيمنة والتسلط على قيادة العالم العربي . او العالم الاسلامي الافريقي او اي عالم آخر – وبالطريقة التي اراد هتلر ان يحكم بواسطتها العالم الاوروبي . ان ما كان يريده ناصر فقط هو ان يقرر سياسته الخارجية تجاه الدول الكبرى . اراد الغربيون عندما جلسوا يتحدثون اليه ، وامانة اقولها للضمير ان معاملة معه يجب ان تكون معاملة تتعدى حدود مصر .. ولكي يشعر بذلك يجدر به أن يكون اقل تقربا من اية حكومة أخرى في محيطة اي ان يجرها الى منطقة نفوذه دون ان تجري هذه معه اية استشارات اولية . ولهذا السبب كان الصراع – نقطة الانطلاق من القصر – عاملا فعالا ، وان قسما من اللعبة لم يدخل فيه ناصر قط .

***

ليست هذه حرب ايديولوجيات ولكن ، رغم الخطب العالية والمنخفضة منها ورغم افتتاحيات الصحف ، انما هي تضادد بين

جهود ناصر الوحدوية وجهود اللاوحدويين المضادة ، والتي تختلف كليا عن مستغلي القومية العربية او الوحدة الاسلامية او الوحدة الاسيو ـ افريقية أو أي شيء آخر .

وكانت تجربة ناصر في الوحدة تتكون من خلال العالم الاسلامي وليس العالم العربي .. فالاسلام كان منذ عام ٦٤١ الديانة الاكثر انتشارا في الشرق الاوسط .. فمبادؤه الاساسية لا تتضمن اي ارتباك او تعقيد ويعتبر من الديانات الغنية بفنونها وآدابها والتي قد تصلح للنداء الوحدوي الذي يفكر فيه ناصر .

وتعود فكرة ناصر بدفع العالم الاسلامي الى المكان الثالث الى فرانزبونش ، وكان هذا الاخير قد حضر الى مصر كاختصاصي في تعذيب اليهود ، كما وضع كتابا في هذا الموضوع يعتبر قمة في البحث والتدقيق سماه « عادات اليهود الجنسية » ، وترجم الكتاب الى التركية والفارسية والعربية ووزع بكثرة بواسطة النازيين اثناء الحرب ليبرهن ان الخصب اليهودي يهددالاسلام كما يهدد الخصب الزنجي المسيحية البيضاء في اميركا الجنوبية. وعندما وصل بونش الى مصر انصرف الى التنقيب عن المخطوطات وتخفيض حدة الروتينية ضد الكتابات السامية وليس ضدالتي تخدم اي اقتراح خاص بوزارة الاعلام المصرية .. ولكنه عمد الى تحقيق مشروع يمس المصالح المصرية وهو أن يجمع النازيين المنتشرين في البرازيل واسبانيا وايرلندا والارجنتين ويعطيهم الثانية ، ثم ينشأ نوعا من المخابرات المركزية تضم احسن العناصر الالمانية والمصرية ويضعها تحت تصرف جمال عبدالناصر ليستخدمها في حربه ضد الشيوعية والامبريالية .

وقدم المشروع الى سعد عفرق وكان هذا مسؤولا في

المخابرات المركزية من ادارة ورعاية الالمان . اهتم سعد جديا بالموضوع ولكنه الح في جمع معلومات اضافية اخرى حوله . ويمكننا ان نؤكد بان الفكرة كانت تنام منذ زمن طويل في ادراج المسؤولين الا ان سعد حركها الآن .. وبدأ بونش يشعر بانه أصبح ذا شأن في الحكومة المصرية .. وبتشجيع من سعدعفرق، استطاع ان يحصل على جميع المعلومات المطلوبة وان يكرر ما استطاع منها ثم سأل اشخاصا من افراد الجالية الالمانية وطلب اليهم ان يقصوا عليه كل ما زالوا يذكرونه .. كانت النتيجة كافية لشنق نصف الاخوان المسلمين وتكفي ايضا للحفاظ على سلامة الضباط المصريين واشغالهم طيلة سنتين وكفيلة بمد رقعة الفوضى . ونفوذ الاخوان ليس فقط في مصر انما في العالم العربي بكامله .

***

وتفيد المعلومات الاكيدة الواردة من المصادر الالمانية ان الاخوان المسلمين كانوا يعملون لحساب مخابرات تلك البلد وتضيف المصادر ان بامكان تلك الوحدة السياسية أن تعمل ضد ناصر كما بامكانها ان تعمل معه وكان ذلك على درجة خطيرة من الاهمية اذ ان اية محاولة من عبد الناصر لكي يتعاون معهم قد تفيدهم لاستخدامه من اجل مآربهم والعكس بالعكس .

لم يكن ذلك كل شيء . فقد علمت فيما بعد وهذا ما ادلى به مؤسسو حزب الاخوان بعد ان تم توقيفهم ، علمت ان المنظمة تتعامل ، على مستوى عال جدا مع الانكليز والاميركيين والفرنسيين والمخابرات المركزية السوفياتية وليس باستطاعة احد ان يبدي اي نشاط لابعادهم والتخلص منهم ... ونخلص مما تقدم الى درس هام هو ان التعصب ليس ضمانة ضد الفساد ، فالاثنان

على مستوى واحد من حيث المجابهة والتضادد . وعندما تحرك الوحدويون الناصريون الى ألجهة المعاكسة ـ السلبية ـ كان هذا درسا حفظوه في مخيلتهم .

***

واخيرا اتخذت حملة محاربة الاخوان المسلمين مكانا لها في عام ١٩٥٧ . انما رافقتها حملة اعلامية كبرى ومنها هذهالعبارة **الهامة :**

« اننا نحتاج الى مؤسسة اسلامية جيدة ويجب ان تكون عالمية والمخجل ان لا نجد في جمعية الاخوان شيئا من هذا » . كما ان الدعوة ضد الاخوان اتخذت طابعا آخر وهو ليس انها ضد الدولة بل ضد الدين نفسه واعتبر المنتمون اليها كجاحدين لدينهم الخاص . وفي نفس الوقت كانت هناك جهود مخلصةتبذل لاقامة مؤسسة اسلامية جيدة والا يكون ناصر فيها .. فقد رأى ان أي اتحاد اسلامي جدي سوف يعود به الى ايام الخلفاء ويصبح ، وبالتالي ، عقبة للمراقبة السياسية وان هذا سيوقظ ويعطي القوات الرجعية صوتا اقوى واعنف .. وفي نفس الوقت ايضا طلب انور السادات وحسن التهامي الى عبد الناصر كي يمنحهما حرية العمل وانشاء مؤتمر اسلامي والاستفادة منه بقدر ما يستطيعان اليه سبيلا .

***

وفي عام ١٩٥٤ عقد أنورالسادات اول مؤتمر اسلاميوترأسه

بنفسه ثم اصبح حسن التهامي ، بعد سنة ، مديره العام . وعنه انبثقت لجان بعث بها الى افريقيا وعقد مؤتمرات لمناقشةالمواضيع المختلفة المتعلقة بالقانون الاسلامي والفن الاسلامي .

وارسل الملحقون الدينيون الى عدة بعثات مصرية فيالخارج واتفقوا على انتظار الفرص المناسبة ليستعملوا المنافع الدينية المشتركة ويحققوا ، اخيرا ،الاتحاد المقترح ضد أحدى الدول الكبرى وبطريقة خاصة . اما الحكومة الاميركية فقد أبدت تحفظا حول الموضوع ، معتمدة على ان المصريين سيقنعون بعض الدول الافريقية (نيجيريا الشمالية) مثلا ، على أن التقدم ليس فعلا في التعاليم الاسلامية وحدها ... وتبدد التحفظ ، باكرا في عام ١٩٦٠ ، عندما اتضح ان الملحقين الدينيين كانوا اقل تعلقا بالتقدم منهم بتوطيد العلاقات التي ستساعد على « المعركة المشتركة ضد العدو المشترك ، وهو الامبريالية » .

***

وكانت الدائرة الثانية التي تخص عبدالناصر هي افريقيا، حسب تصاعد القوى الفعالة واهميتها ، او بالاحرى افريقيا وآسيا معا ، ومن الاحداث الخارجية التي عملت ضد عبدالناصر هي ان « البدان السوداء في العالم » بدأت تتخوف من حركته وانتشارها على مدى الحركة الجغرافية اكثر مما كان يتصورها هو نفسه . ولاقى تحديه للغرب صداه فقد بدأت الصحفتكتب عنه في صفحاتها الاولى وتحيك حوله المقالات المتنوعة ابتداء من السنغال وحتى كوريا الشمالية .. ولكن يستحيل عليه تكوين امبراطورية أفرو ــ أسيوية كبرى (او ربما لم يكن هذا من ضروب الاستحالة ، اذ ان المعلقين والمراقبين الدوليين بدأوا

يميلون الى الاعتقاد بانه كان ، فعلا ، يطمح الى ذلك) .

ففي شباط سنة ١٩٥٥ قابل نهرو وبعده،بعشرة ايام فقط، قابل تيتو ، فكره الاول واحب الثاني . كـان نهرو يعظه بينما تحدث اليه تيتو كشاب ولا فرق بينهما من حيث السن ، ولكن الاثنين اوضحا له انهما يؤمنان بجدية اقواله .. وقد اخذا زمام المبادرة بتسيير اللقاءات في منزله فيمنشية البكري .. هذا من ناحية ، وطلبا اليه ان يأخذ بعض المبادرات في مؤتمر باندونـغ المقترح عقده في اندونيسيا .

وبفضلهما شعر بانه اصبح ذا اثر كبير في العصبة الكبرى وقبل ان يبلغ باندونغ بزمن طويل .

***

وقبل ان يذهب ناصر الى باندونغ كان اصدقاؤه الاميركيون في غاية السرور والانشراح . وهم شجعوه ، كذلك ، على ان الفرصة حانت ليثبت اقدامه في العصبة الكبرى: كما جاء اختصاصيـون من واشنطن ليكتبوا التقارير الخاصة التي نقلها الى العربيـة علي صبري نفسه ، وكان يعمل وزيرا بدون حقيبـة في رئاسة الجمهورية ، على امل انه سيعدل بعض الافكار . حتى ان بعض الاعضاء المحيطين بناصر شكوا فيما عساهم يرجون من شوان لاي والشيوعيين وتسربت معلومات كثيرة الى ناصر بواسطة السياسيين الاندونيسيين ومنها موضوع هام يتعلق بحكومة الولايات المتحدة الاميركية ولكنه ، خارجيا ، يتعلق بناصر نفسه منـذ ان يتيقن سوكارنو انه سيكون احد اخصامـه في المؤتمر . ومنـذ مجيء الاختصاصيين من واشنطن الى سفارتنا في القاهرة بدأ حماسنـا

يشتد اذ ان التقارير الواردة الى السفير بايرود والترجمات التي قدمها علي صبري لعبت دورا كبيرا في الهاب الحماس هذا.. فقد كتبت التقارير في مكتبة السفارة وليس فيها ما يشير الى انها نقلت عن مصادر اميركية ، الا انها بدت لتقدم مواقف يفكر ناصر ، حاليا ، باتخاذها .

كان بيتر تشيز يعمل كضابط سياسي في السفارة، وعندما قدم الترجمة الانكليزية للتقارير علق بقوله على ان وجهات النظر فيها تعتبر من أذكى ما ورد في أي تقرير كان من بلدان الشرق الاوسط وانه على الولايات المتحدة ان تعرف كيف تستغل نفوذ ناصر في آسيا وافريقيا فيكون حياديا يعمل الى جانبها بدل ان يكون حياديا ويعمل الى جانب الشيوعيين ..

وفي هذا الوقت بالذات بدأ السوفيات يحبذون نفوذ ناصر الكاسح في افريقيا وآسيا ، فقد تناسوا عداءهم له يوم توقيع معاهدة قاعدة السويس ومروا فوق كل شيء وكلهم امل بان عبدالناصر سيساعدهم في حربهم ضد الامبريالية الغربية . فقد حلت هذه الظاهرة محل البورجوازيين الوطنيين في البلاد الافرو ـ أسيوية واصبحت العدو الاكبر . وتلقى الروس خبر نجاح ناصر في باندونغ وتمثيله دور القائد ببراعة ، استقبلوا هذا الخبر بسرور بالغ ورحبوا به اكثر مما فعل الاميركيون .. ولم يتعرض لهم ناصر في خطبه في مؤتمر باندونغ . فقد استطاع ، اخيرا ، ان يقنع الحكومات الغربية بانه نجح في ارساء قاعدة الحرب ضد الامبريالية التي بدأت تسيطر على جو المؤتمر وقارنه بحرب معتدلة ضد المستعمرين ، مما دعا الروس الى الترحيب به جدا.

***

وهكذا حاول ناصر ان يسر الفريقين .. انما كان هناك فرق كبير ، فالسوفيات لم يبدوا اي تحفظ تجاه سلوك ناصر وتصرفه، بينما ابدى الجانب الاميركي تحفظات عدة .. مما جعل من ناصر ، فعلا ، شخصية عالمية لها وزنها في المجال السياسي الدولي . اي انه تخطى سوكارنو ونكروما واصبح في صف رجالات عظام كنهرو وشوان لاي .. ولكن هذين الاثنين يختلفان عنه في نقاط عديدة . ودون ان يدع ناصر مجالا للخديعة استطاع ان يتيقن من بلوغ الهدف. وفي اول مناسبة بعد مؤتمر باندونغ جعله الروس يعلم انهم يفكرون بأنه فعلا وصل .. اما نحن فلم نفعل شيئا من هذا واكتفينا بالصمت .

***

ولم يعلم ناصر بقسمنا من التشجيع الا في ظروف عصيبة والجدير بالذكر أننا اخطأنا في كيفية ابلاغه ذلك . وابدأ فأقول ان السفير بايرود قد اخطأ بعدم ذهابه الى المطار واستقبال عبد الناصر عند سلم الطائرة التي عادت به من المؤتمر وهو لايزال منتشيا بالانتصار الذي حققه في باندونغ . وعندما وصل ناصر الى منزله، بعد ان حيا الجماهير المحتشدة على طول الطريق ، كان اول تقرير وصله ليس فقط عن عدم وجود بايرود بين المستقبلين انما حول تنبه جميع السفراء الغربيين المعتمدين في القاهرة الى عودته المظفرة . والحقيقة هي ان السفير بايرود اتصل بالسفير البريطاني ليستعلمه حول خصوصيات البروتوكول ونبهه هذا الى تأجيل الذهاب وافساح الطريق امام السفارات الافرو ـ اسيوية لاستقبال الرئيس.. ونتيجة لذلك اتصل عدة سفراء غربيون ببايرود وسألوه اذا كان سيذهب ام لا ؟ فاجاب ان الاستقبال خاص بالسفارات الافرو ـ اسيوية وان ناصر سيقدر ذلك اذا ما نحن اتحنا الفرصة

للاخرين حتى يقوموا بواجبهم الدبلوماسي .

كانت فكرة سفيرنا صائبة ونواياه جيدة .. ولكن آلة جهاز المخابرات اللاقطة جعلتهم يظنون ان بايرود يتحدث وكأنهاحد اعضاء كوكلوكس كلان السرية .

وفي تقرير خاص ، سري ، علم عبدالناصر أن بعض موظفي السفارة الاميركية كانوا يغمزون الى مؤتمر باندونغ .. وهنا يسهل علينا ان نتصور ردة الفعل عنده .

كانت ادارة ناصر الخاصة ، بتنمية « حلقته الثانية » شبيهة بتلك التي استخدمها ليربح نفوذا اكثر في العالم الاسلامي.

صدرت الامر الى وحدة في المخابرات المركزية لتقصيالحقائق والتأكد من كل شبر سيتم العمل فيه والتي ستتمركز فيه بقية الوحدات السرية التابعة لنفس الجهاز . كما طلب الى وزارة الخارجية ان تنشأ مكتبا خاصا مهمته ان يتدبر سياسيا مع ذلك النوع البسيط من الانطواء المطلوب للتعاون مع بلدان جنوب الصحراء .. فقد تمت اقامة وحدة من المخابرات في مقر الرئاسة بالذات ليوفق بين السياسة والاعمال في افريقيا .. كما اعطيت لها اسبقيات على بقية الوحدتين واعتبرت كوزارة مستقلةبذاتها. والغريب انه رغم هذه الترتيبات ، فشل اختصاصيو عبدالناصر وجاءت تلك المشاريع تدل على طموح ناصر غير الحقيقي .

الحقيقة هي ان اطماع عبدالناصر في آسيا وافريقيا كانت متواضعة . واصبحت القاهرة ملاذا لكل انسان افريقي يعاني من مشاكسات الحكم الاستعماري .. كما اصبح راديو القاهرة اكبر دعاة الحركات الاستقلالية داخل افريقيا .

الازمة اللبنانية

ان نظرة شاملة على ماورد من التقارير الرسمية الاميركية في اوائل عام ١٩٥٧ والتي بدت لتكون قمة لعبة الصراع مع عبدالناصر ، تظهر لنا عدم تفهمنا لسلوك عبدالناصر . ولو كان هناك شخص غير فوستر دالس نفسه ، وربما واحد او اثنان من الذين عملوا معه مباشرة ، لما كان هناك حماس بالغ في وزارة الخارجية لمبدأ ايزنهاور ، وعندما ثار ناصر ضد المبدأ بقوة لم تكن الدهشة قوية . وعندما قويت حملة عبدالناصر ضد الدول « الرجعية » ـ وخاصة ضد الرئيس اللبناني كميل شمعون ورئيس وزراء العراق نوري السعيد ـ كانت ردة الفعل المهيمنة في وزارة الخارجية الاميركية تدور حول السؤال التالي « ماذا كنا ننتظر غير هذا ؟ » وجاء في تقرير من أحد سفاراتنا في الشرق الاوسط هذا القول : « يمكننا ان نلوم عبدالناصر بقساوة لاستعماله الوسائل التي اثبتت عدم فعاليتها » ، وعلى الهامش كتب احد المسؤولين في واشنطن : « ان العار هو في أننا اعرناه اياها ليعمل بها » . كان هناك ، اذن ، عامل للنقد الذاتي في تدني سلبية ردة الفعل عندنا ، ولكن اغلبية المسؤولين عندنا والذين يعنون بالسياسة تجاه الشرق الاوسط آمنوا انه ما ان يصبح عبدالناصر شخصية تجتاح المستقبل ، وبأية وسيلة كانت ، عندئذ لم يعد لنا أن نختار انما يجب ان نتعامل معه هكذا .

***

ويختلف الوضع بالنسبة للمخابرات المركزية الاميركية، المؤسسة التي تضم ضباطا يتمتعون ببرودة اعصاب اقل من العاملين في وزارة الخارجية .. واؤكد انهم جميعا كانوا بعيدين عن اللجوء الى العداء . كانت أول ضربة ضد الرجعيين وقد وجهها عبدالناصر ليحاصر دعوتنا الى مبدأ ايزنهاور ، كانت محاولة تشجيع انشاء جبهة اتحاد وطني في لبنان ، تتألف من الاسلام والمسيحيين المناوئين لسياسة كميل شمعون والذين يشعرون بانه يجب على لبنان ان يلعب دورا كبيرا في الشؤون العربية وليس كما كان يرغب شمعون ظاهريا . وجاء ردنا العكسي على حركة عبدالناصر هو ان نعهد بتقصي الحقائق الى رجال المخابرات المركزية ليتصلوا بالفرقاء المعنيين بالجبهة الناصرية الجديدة ومحاولة اقصائهم عنها وبالتالي مساندتنا الكلية للرئيس شمعون . ومن اجل ذلك قدمت سفارتنا في بيروت ـ ولا دخل للمخابرات هنا ـ بعض المساعدات الى المرشحين لانتخابات حزيران عام ١٩٥٧ والموالين في سياستهم للغرب (وفي نفس الوقت كانت سفارة فرنسا وانكلترا وروسيا تقدم لمرشحيها ، ربما كميات أوفر) ـ وهكذا فعلت السفارة المصرية هناك مع مرشحيها ـ اما المخابرات المركزية المصرية المتغلغلة في الاوساط البيروتية قالت ان المخابرات المركزية الاميركية هي التي اجرت انتخابات لبنان. ويمكنني ان أؤكد ان ما حدث هو لعبة احتيال من كلا الجانبين : المصري والاميركي .

ومن المسلم به ان هناك نوع من الاحترام المهني بين اكبر رؤوساء المخابرات في العالم ، مع انه بالطبع ، لا وجود لمثل ذلك في العلاقات المحدودة في مجالات اخرى . وفي بيروت كانت العلاقات بين المخابرات المصرية والاميركية وثيقة جدا ويربطها نوع خاص من التعاون المتبادل ـ انها اشبه بما حدث في طانجه اثناء الحرب العالمية الثانية . كان رئيس المخابرات الاميركية المركزية في بيروت

ورئيس المخابرات المركزية المصرية هناك ينعمان بصداقة متينة وتجمعهما علاقات اجتماعية لا تؤثر على مهنتهما المرة الا قليلا . فرئيس المخابرا الاميركي يعمل لصالح جبهة ـ مع شمعون ـ وزميله المصري يعمل لصالح الجبهة الناصرية ومن ثم يتبادلان الاتهامات ولكن على اساس من الاعجاب المتبادل ، وبعيدا عن الحقد والكراهية .

***

ولكن المرشحين الموالين للغرب والمناوئين للمرشحين الناصريين منوا بهزيمة نكراء في الانتخابات .. وخسارة كهذه هي من انسب الموضوعات للحوار بين الاميركان والمصريين في استراحةما ،ومباشرة بعد الافطار . بعد هذه الانتخابات التي بدأت في اواخر سنة ١٩٥٧ ، اخذت مصر تركز حملاتها على لبنان . بدا واضحا للمراقبين في بيروت ـ أو للمستمعين لاذاعات صوت العرب ـ ان عبدالناصر سيلجأ الى استعمال جميع وسائل القوة للاطاحة بشمعون . وعندما قمت بزيارتي الى القاهرة في آب ١٩٥٧ اكد لي اصدقائي المصريون ان « شمعون وحسين ونوري السعيد» سينهارون الواحد تلو الاخر . وتبين فيما بعد ان تخطيطهم كان خاطئا ولم يتحقق من تنبؤاتهم الا الثلثان فقط .. انما لم المس وهنا في تصميمهم على العمل .

نظر المصريون ـ والى حد ما وزارة خارجيتنا نفسها ـ الى الامتداد الذي بلغه لبنان فاصبح بلدا ذا اهمية بالنسبة للمصالح التجارية الغربية . فقبل عام ١٩٥٠ ، لم يكن الاميركيون الذين عرفوا العالم العربي سوى مجموعة من المبعوثين والمربين والباحثين عن الآثار والسياح ..وكان مركز تعاملنا ونقطة الثقل فيه وكذلك

بالنسبة لكل المسائل المتعلقة بالشرق الاوسط ـ كان الجامعة الاميركية في بيروت ومتفرعاتها : كلية روبرت (في استانبول) ، والجامعة الاميركية في القاهرة .

واثناء الخمسينيات ، كانت شركات البترول تظهر جليا للعيان ، اكثر فأكثر ـ ومن الطبيعي ان يسعى وراءها بائعو المعدات الهندسية والمولون الذين كانوا قد تنبأوا بالاحتمالات التي يقدمها نمو الجمعيات الاميركية البترولية ، واخيرا ممثلو الشركات التي تبيع تشكيلات واسعة من المواد المستهلكة .. وعندما تدفق الزيت العربي ، بدأ السعوديون والكويتيون يصرفون المبالغ الطائلة في لبنان محدثين ازدهارا اقتصاديا ادى الى جلب المزيد من المولين الى المنطقة . لم يكن اهتمامنا التجاري ، حتى ذلك الحين وقبل عشر سنوات ، قد تبلور بعد ، بل كان يتخبط في فوضى مريعه . وكانت بيروت مركز رجال الاعمال او نيويورك الشرق الاوسط .

تدني النفوذ التجاري الاميركي في المنطقة اثناء حرب السويس وبدأ يؤثر على سياق سياستنا الخارجية .. مع انه فتر حماس الشركات وبعد ان اعتبرت وزارة العدل ان ما تقوم به احدى اللجان البترولية لا يتفق والهدف الذي وضعت من أجله ، واثناء الازمة اللبنانية عادت الشركات من جديد تلعب دورا فعالا في سياستنا الخارجية وفي تطور الازمة وتصعيدها .

***

ثار الشيوعيون ، تدعمهم الصحف المعادية للغرب وانصرفوا الى شن حملة عنيفة على الاميركيين وخاصة على اصحاب الشركات البترولية وسموهم بالقوة المجنونة ، والانتهازيين ، وعديمي

المسؤولية الذين لا يهتمون بمصالح الشعب انما يسخرون اي شيء في سبيل بلوغ مآربهم الشخصية ثم إطلقوا الشعارات الثورية المختلفة وباشروا زرع الافكار العقائدية على مختلفها . انهم يعلمون ان الحكومات المستعمرة والسعادة الاجتماعية امران هامان لاستمرار عملياتهم ونجاحها .

صرفوا ملايين الدولارات في مشاريع ومخططات قالوا انها من اجل رفاهية الشعب وصالحه وباتوا لا يثقون باية حكومة تحارب مبادئهم وان مخابراتنا هي وراء كل ما يحدث من فوضى واضطرابات وهذا ما ادى الى خلق توتر بين اعضاء بعثاتنا الدبلوماسية في الخارج .

***

ابتداء من ذلك الوقت تنبأ رجالنا الذين هم على اتصال دائم باصحاب الزمام ان انفجارا ما سيحدث في اية لحظة . تخليت عن وزارة الخارجية في ايار سنة ١٩٥٧ وقدمت الى حكومتي تقريرا رسميا حول انشاء شركة بترول وشركة طيران ومصرفا في بيروت في شهر تموز . وفي الوقت نفسه كانت بقية شركات الزيوت قد اسست « علاقات حكومية رسمية » لتبقى على استمرار دائم مع الوضع المتزايد والقابل للانفجار بين دقيقة واخرى – وبمساعدة المسؤولين في شركة التابلين وخاصة ساندي كامبل ودافيد دودج وهذا الاخير هوابن بافارد دودج الرئيس السابق للجامعة الاميركية في بيروت وواحد من اشهر المتحدثين بالعربية في الجالية الغربية على الاطلاق . وفي الوقت نفسه كتب هاري كرن وسمير سوقي اول تقرير « لسياستهما الخارجية وتعتبر هذه الرسالة الاخبارية من اهم التقارير واكثرها تأثيرا » بين شركات البترول الكبرى .. بعد ذلك مباشرة بدأ فؤاد ايتايم كتابة

سلسلة « جولة في اقتصاد الشرق الاوسط » وتبعه كثير من المقلدين . ولسنوات خلت كان في بيروت مصارف اكثر من نيويورك وصحف اكثر من لندن ، واظنها لا تزال هكذا من حيث عدد الصحف .

***

في منتصف عام ١٩٥٨ قدمت بيروت تقارير ورسائل اخبارية اكثر مما قدمته لنا حول الشرق الاوسط كل من نيويورك وباريس ولندن مجتمعة .

اتضح للمراقبين ، في اواخر عام ١٩٥٧ واوائل عام ١٩٥٨ ، اكثر مما اتضح للمساهمين في خلق الحوادث ، ان انفجارا سيحصل ولا مفر من ذلك .

لم يكن بالنسبة للمراقبين انفسهم ، ولدينا فقط السفير الاميركي هناك ــ والسفير هذا هو دونالد هيث الذي عمل حتى اواخر ١٩٥٧ وحل محله روبرت مكلينتوك في اوائل ١٩٥٨ ــ انما كنا نملك مجموعة من المراقبين الرسميين وشبه الرسميين الذين كان يعملون تحت امرة السفير سوية او منفصلين عنه . كان هناك اولا بيل ايفلاند ، الذي بعثه البيت الابيض في مهمة خاصة للبقاء على اتصال دائم بالرئيس شمعون وملاحقة مبدأ ايزنهاور بدون انقطاع ــ وكما اخبرني احد الاصدقاء في وزارة الخارجية « ليعمل كميزان للسفير ماكلينتوك » .

***

تم انشاء جهاز خاص بالمخابرات المركزية وعلى مستوى عال

جدا . واوكل اليه ان يعمل « كمعاون لمصادر الاعلام » وان يبقى بعيدا عن الانغماس في العمليات السرية .. وكان ان بقي المساعد مستقلا عن مكلنتوك نظرا لاهمية منصبه كمعاون ولارتباطه المباشر مع الاخوين دالس في واشنطن .. واخبرني احد كبار موظفي السفارة في بيروت « ان ماكلنتوك مني بفشل ذريع في مهنته الدبلوماسية » .

واخيرا هبت الشرارة التي اشعلت الثورة في ٨ ايار سنة ١٩٥٨ ، عندما اقدم مجهول على اغتيال الصحفي الناصري نسيب المتني والذي ظنه المناوئون لشمعون ان هذا الاخير تسبب بقتله .. وفي الاسابيع القليلة التي تلت الحادث قتل اكثر من عشرين شخصا في اماكن مختلفة من لبنان .. ولكن مقتل المتني وافق الكثير من اعداء شمعون للوقوف ضده والثورة عليه .. كما ان شمعون وبيل افلند اقتنعا بان رد الناصريين سيكون قريبا وعنيفا وانه منسق وينتظر اشارة ما ليعمل ، فجاء مقتل المتني يذكيه ويدفعه الى العمل المباشر . فقال الشمعونيون ان قتلة المتني هم ناصريون وقال الناصريون العكس .

***

ايد هذه الفكرة جمهور كبير من المواطنين .. وعندما وقف اعداء شمعون يحفرون المتاريس كمراكز استراتيجية داخل المدينة ، وقطعوا طرقات النقل الرئيسية ، واقفلوا الحوانيت وحفروا الخنادق المحيطة كمراكز دفاعهم وحولوا حياة المدينة التجارية والاجتماعية الى جحيم ، عندئذ وقف الشمعونيون يردون بالمثل . وخلال يومين او ثلاثة ، كان لبنان في حالة حرب اهلية ـ حرب اهلية محرجة ولكن على الرغم من ذلك قد شلت البلاد .

كان اعداء شمعون ، ومن الافضل تسميتهم « ثوارا » منذ ان وقفوا ضد الحكومة ـ كانوا مؤلفين من فئتين : زعماء من كبرى الجاليات التي كانت تعمل ضد شمعون والذين اعتبروا انفسهم مسؤولين عن مجموعات من السكان، ويتألف القسم الثاني من زعماء آخرين لهم طابعهم الخاص يهتمون بالاعمال الشخصية والبحث عن الارباح الطائلة . ضم القسم الاول كلا من صبري حماده من البقاع ورشيد كرامي من طرابلس وكمال جنبلاط من الشوف .. يساندهم المصريون، فحصلوا على معونات حربية لدعم مواقفهم .. وظهر ، فيما بعد ، باستثناء جنبلاط ، ان بامكانهم اقتسام أية مساعدة ، مهما كانت صغيرة ، بسهولة .

رفض الجيش اللبناني ، بقيادة الجنرال فؤاد شهاب ، ان يسند موقف الرئيس شمعون بعد ان احتفظ بالمقاتلين على حدة ، ولم يكن هناك مسلحون مدنيون يدعمون شمعون ليوقف تحدي كل من صبري حمادة ورشيد كرامي . اما كمال جنبلاط ، آنذاك ، فوجد نفسه يحارب اعضاء من الحزب القومي السوري المسلح جيدا ، وهو جناح يميني استخدمه شمعون قليلا والذي كان على عداء كبير مع الرئيس جمال عبد الناصر .

اما « كبار بيروت » الاربعة وهم : صائب سلام وعبدالله اليافي وعدنان الحكيم وعبدالله المشنوق فكانوا مرتبطين مباشرة بالمساعدة التي تقدمها اليهم مصر ، ليس فقط بالسلاح بل اغدقت عليهم اموالا طائلة لشرائه عندما تدعو الحاجة ، وعندما اعطى المصريون السلاح الى كمال جنبلاط ـ وكان باشد الحاجة اليه ـ كانت استراتيجيتهم مبنية على الالتفاف الشعبي الكبير حول الزعماء البيروتيين الاربعة الذين ـ في رأي المصريين ـ بامكانهم اثارة الشارع في لبنان والسيطرة على الحالة في بيروت .

***

وكان رئيس مكتب المخابرات المركزية المنتدب الى بيروت من الرجال الاذكياء يعاونه لفيف من الضباط المخلصين . كان حقل عمله محصورا بالسوريين الذين كانوا على استعداد للقيام باي عمل يطلب اليهم وقد ارسلهم عبر حدود لبنان الجبلية رئيس المخابرات السورية عبد الحميد السراج الذي كان اداة وصل مثالية بين المصريين الاختصاصيين والشارع اللبناني .. وكانت هذه قوة رائعة تصدت للرئيس شمعون ومسانديه الغربيين في حزيران سنة ١٩٥٨ ، اي مباشرة بعد شهر من بدء الحرب الاهلية .

ولكن الجانب الغربي لم يكن واضحا في كيفية احترامه لاستراتيجيته وليس في مجهوده ادنى مجال للتعاون ، كان هناك إختلاف وتناقض كبيران لتفسير ما يجري وكذلك بالنسبة للصراع حول التأييد وتأثير الاحداث .

***

اذعن السفير مكلنتوك للري القائل بان الرئيس كميل شمعون سوف ينجح شخصيا في تأدية دوره (وهذا ما عبر عنه بنفسه للرئيس شمعون) ولكنه اخيرا تحول الى الرأي المعاكس ـ تاركا بيل افلند والمخابرات المركزية وكثيرا من الاعمال ذات المصالح المشتركة مع وضعه الاصيل . اما ما تبقى من الاعمال المشتركة ، وخاصة العلاقات الرسمية الحكومية مع شركات الزيوت الكبرى ، فقد رأى فيه مخرجا ضد الغوغائية واكد ان ما يبحث عنه من قانون ونظام يعبر عنه هذا التخلص المشرف وآمن ، على حد قول احد المسؤولين في شركة ما ، « انه مهما يحدث فابعاد الرعب امر مفروغ منه ويجب تفاديه » .. وفي الاخير ، حاولت احد الشركات ان تحصل على اتفاق لا خداع

فيه مع زعماء المقاومة (بما فيهم زعماء بيروت الاربعة) ولكي يوافقوا مع الشمعونيين المعتدلين على ان اهم « شيء الان هو ايقاف تخريب بلدنا الحبيب والموافقة على تصفية خلافاتنا بالطرق السلمية » .

* * *

واكتنف الغموض سلسلة الخلافات القائمة بين النافذين الاميركيين ولم تصل الى حكومتنا ، حول الموضوع ، سوى التقارير المتضاربة والسيئة ، وهذا ما يفسر وجهة نظر الموقف الاميركي ومدى نفوذنا في المنطقة مع العلم ان هذا النفوذ كان ، منذ ١٩٥٨ ، عاملنا المهيمن في اللعبة الحكومية ليس فقط مع عبد الناصر ، بل مع زعماء وطنيين آخرين حذوا حذوه . ومباشرة بعد الازمة اللبنانية ، كان بعيدا عن الواقع ان موقفا كهذا موجود ظاهريا ، ولكن هذا بدأ يتلاشى ، في مستهل الستينيات ، لدى جميع مراقبي اللعبة ولدى المصريين انفسهم ، واتضح للفريقين ان العامل الجديد قد اصبح كافيا لتبديل طبيعة اللعبة ، مع ان اللاعبين انفسهم لم يكونوا قد تمكنوا من تحقيقه بعد .

* * *

ان اكثر التيارات فعالية في الموقف الاميركي كان النفور من العنف كوسيلة للحصول على الاهداف ، وحتى السيء منها ، ولدعم هذا الاتجاه عملنا ، جادين ، على الابتعاد عن كل ما من شأنه ان يورطنا في ازمات العنف والصخب .. فقد لاقى التيار مشجعين ايدوه مقتنعين وخلصوا الى القول بان كل ما ينتج عن

العنف سيجهض وانه مهما كان المتزمتون على « حق » فهم غير جديرين بالايمان الجماهيري في اية مناسبة كانت .. يتضح مما تقدم ان الحـل السلمي لجميـع الامور افضل مـن اللجوء الى القوة .. فالذين تحدثت عنهـم لم يؤمنوا بالقسوة ولم يحبـوا اولئك الذيـن استخدموها .. وان اي انسان استخدمهـا كاف ليحارب ، وان الانسان الذي استعملت ضده مثل هذه الاساليب جدير بـه ـ يحق له ـ ان يثور ويعترض ويدافـع عـن حقه مستندا الى قاعدة وطنيـة . قوبين الاميركيين المعنيين بالازمة اللبنانية ـ رسميا او غير رسمي ـ لم يكن هناك من خلاف حول هذا الاعتقاد . فالدبلوماسيون ورجال الاعمال يختلفون من حيث درجة الخبث وعلى الاساس الذي يبنونه عليها .

* * *

كـان موقف دبلوماسيينا يتمثل فيما قـاله احـد اعضاء السفارة لساندي كامبل رئيس التابلين : ماذا بامكاننا ان ننتظر غيرهذا ؟ ان املنا في الازمةاللبنانية فيانها سوف لن تتحول الىعنف هو كمن يأمل « ان تكف الكلاب عن مطاردة الهررة » .. اما رجال الاعمال ، الذيـن شاهدوا زملاءهم اللبنانيين وعرفـوا مدى ما ستتعرض له مصالحهم التجارية ، لم يوافقوا على اي مقترح .. وكانت رسائلهم الى رجال الكونغرس ، والتي تحولت الى وزارة الخارجية ، كانت تعكس وجهة نظرهم وتعبر عن عدم قبولهم .

كان رجال الاعمال الغربيين يثقـون تماما بكل مـن اميل البسـتاني (١) ، متعهد ومليونير مسيحـي ـ وفوزي الحص ـ

---

(١) قتل في حادث طائرة في ١٥ اذار ١٩٦٣ .

متعهد ومليونير مسلم . وقد طلب الي الاثنان ان استغل من صداقتي مع عبد الناصر واستعملها كطريق لايجاد حل للازمة اللبنانية التي ستشل الجانبين الاميركي والمصري وتجعلهما غير قادرين على مساعدة شمعون ورجال بيروت الاربعة ، ولجعل الطريق مفتوحا امام تسوية بين الشمعونيين والثوار والذين تجمعهم رغبة مشتركة هي الحفاظ على كيان بلدهم الحبيب لبنان وايقاف تدميره . كنت على اتصال دائم مع الرئيسين قبل ان تبلغ الثورة اللبنانية درجة الغليان وعندما وافقت احد شركات البترول الكبرى على المبدأ وايدته ، وافقت انا ، في اوائل حزيران ، على ان اتحدث الى الرئيس شمعون اولا ثم الى الرئيس عبد الناصر .. فلم اكن اقصد بيع افكار او عرضها انما كنت اجس نبض قبولهما لافكاري ومدى اخذهما بها .

كان كميل شمعون – الرجل الانيق ، ابيض الشعر ، والذي يشبه الرئيس اليوغسلافي تيتو الى حد بعيد – كان عربيا قبل ان يسمع عبد الناصر بكلمة « عربي » بفترة طويلة ، وعندما ولدت فكرة القومية العربية في الجامعة الاميركية في بيروت ، كان شمعون نفسه من اكثر المنادين اندفاعا بالوحدة العربية وبتوطيد القومية العربية لمجابهة موجة الخطر الصهيوني . ولسنوات خلت لم يعد شمعون يؤمن بالقومية العربية كاقتراح سياسي عملي واصبح يعتقد ان هذه النزعة هي من اسوأ النزعات السياسية الاسلامية . كان يتخوف الى درجة كبيرة من ان السياسة القومية العربية ستبتلع مسيحيي لبنان وتجعلهم اقلية مضطهدة في « بحر » اسلامي لا يهدأ قراره .

* * *

تفهم عبد الناصر قلق شمعون وقدّره ، حتى لعله استساغه

لان تقديره الخاص لاتحاد الاسلام مع القومية العربية ، كان عبارة عن توافق وتعاون وليس نتيجة اي اقتناع فكري . ولكنه اعترض على محاولات شمعون الرامية الى بقائه على الحياد في النزاع القائم بين التقدميين العرب والرجعيين منهم والذين عناهم وزير الخارجية دالس بقوله عندما تحدث عن القومية العربية : « ان الحياد في النزاع القائم في الشرق الاوسط يعتبر عملا غير اخلاقي . »

كان عبد الناصر قلقا من كون لبنان يستعمل اكثر فأكثر كقاعدة للعمليات ضد الجمهورية العربية المتحدة الفتية، واستطاع عبد الحميد السراج ، رئيس المخابرات والامن في الاقليم الشمالي ـ سوريا ـ استطاع في اول لقاء له مع عبد الناصر ان يقنعه بواقع الحال هذا .. واخيرا اعتبر شمعون كمرتد وعميل مع انه لم ينضم الى حلف بغداد بل رحب بمبدأ ايزنهاور .

* * *

وفي ٢٠ حزيران طلبت انا وفوزي الحص الى الرئيس شمعون كي يسمح لي بان آتي على ذكره الى الرئيس عبد الناصر ويوافق على لقائي مع رشيد كرامي وصبري حماده وكمال جنبلاط وهكذا يتسنى لي ان اقوم بمجهود شريف واتوصل الى معاهدة حقيقية معهم مقابل ان يتخلى عبد الناصر عن مساندة رجالات بيروت الاربعة . لم يكن شمعون ميالا الى الفكرة هذه .. ومن الواضح ان وراء تمنعه هذا كان يكمن افتراضه بان التدخل الاميركي ، تحت مبدأ ايزنهاور ، سوف يكون قريبا وسيحصل عليه عندما يطلبه . اسكتنا استقبال كهذا وجلست وفوزي الحص صامتين عندما اخبرنا انه لا يثق بالسفير الاميركي الذي كانت غلطته الاولى في ان التجديد اصبح مهما جدا وان بيل

ايفلاند ، الذي كان قد وثق به جدا ، كان يحذره كي يصمد .

وبناء على الحاح كل من فوزي الحص واميل البستاني ذهبت الى القاهرة كيفما اتفق ، وبعد حديث مع السفير ريمون هير ، ذهبت بمفردي للقاء مع عبد الناصر . علمت من الاثنين ان فكرة كهذه راودت الرئيس عبد الناصر وانه اقترح شيئا مماثلا لها للسفير هير . قال : منذ ان كانت الولايات المتحدة والجمهورية العربية المتحدة طرفي نزاع في الازمة اللبنانية ويعلقان عليها آمالا كبيرة فعليهما ايفاد ممثلين لهما والعمل على صيغة اتفاق وفرضه على لبنان ، وبعد ان اتصل هير بواشنطن وتبادل الحديث حول الاقتراح ، عاد الى عبد الناصر برد يسيء فهم اقتراحه ، فقال : « يسر حكومتنا ان تتوسط بينكم وبين الرئيس شمعون » .

ارتبك عبد الناصر جدا وهو الذي اعتاد ان يرى السفراء الاميركيين يسيرون على خطاه بدون تذمر . وعندما قابلته كان لا يزال ينحي باللائمة على هير وورطته ، ولكنه حدد رأيه في الازمة اللبنانية في نقطة واحدة الا وهي انه لو كان حل الازمة بيده لجعل من فؤاد شهاب رئيسا للجمهورية ومن رشيد كرامي رئيسا للوزراء وانه يجب ، بسرور ، فتح ثغر ، في جبهة البيروتيين الاربعة يضاف اليهم السفير المصري عبد الحميد غالب الذي يعلم الكثير عن الاحداث اللبنانية . ثم اضاف : « وبما ان الامور متوقفة الان ، يجب علينا ان نرى ان كل شيء يسير بنظام الى نهايته الطبيعية ، فانتم تعملون من جهتكم ونحن نعمل من جهتنا .

اخبرت السفير هير اني افكر بان اصدقائي الاميركيين واللبنانيين في بيروت اصيبوا بخيبة امل وسوف يفكرون بان

اجابته الى الرئيس عبد الناصر قلبت رأسا على عقب النوع الوحيد من الاتفاق الذي يمكن ان يضع حدا نهائيا للنزاع . اجاب هير انه كاد يقتنع باقتراح عبد الناصر ولكنه تلقى من واشنطن تعليمات تفيد بان رجال الاعمال في لبنان سوف يحتجون بقوة ولا يوافقون على اجابة ملائمة . ثم اضاف : « منذ البدء كنت تبرهن على انه ليس هناك من شخص ، لا عبد الناصر ولا اي انسان آخر ، يجب ان يوافق على زرع الطريق المؤدي الى طاولة المحادثات بالقنابل وذلك اذا ما اراد عبد الناصر ان يتفاوض مع اميركا بدل التفاوض مع شمعون نفسه فانه قد اعد نفسه ليتحدث على اسس مجدية اكثر .

* * *

اما السفير هير فقد ارتكز في حديثه على معلومات رسمية استقاها من تقرير احد اسياد البترول الاميركيين في بيروت .. وتجدر الاشارة الى ان التقرير ذيل بهذه الملاحظة : « ان هذا قد استحال الى صراع بين مأجوري عبد الناصر من جهة ومأجوري شمعون من جهة اخرى ، ولكن مأجوري شمعون كانت لهم افضلية لانهم كانوا يعتبرون انفسهم اصحاب حق وان وضعهم شرعي . »

كان هير يوافق جزئيا على هذه النظرة ، ولكنه قال انه هذه هي النظرية الجديدة في واشنطن ويشكر النفوذ الجديد الذي احدثته التقارير غير الرسمية الواردة من رجال الاعمال في بيروت والتي كانوا قد زودوا بها وزارة الخارجية الاميركية في الوقت الملائم . وكما ان اقتراح عبد الناصر القاضي بان يكون الجنرال شهاب رئيسا للجمهورية ورشيد كرامي رئيسا للوزراء كان يعتبر في رأي الجمهورية العربية المتحدة صوابا . كان رد وزارة

الخارجية الاميركية يقول بان وجود هذين الشخصين على رأس الحكم في لبنان لن يعيد الامن والسلام الى البلاد على الاطلاق .

* * *

وعندما عدت الى لبنان علمت ان المساعدات المصرية الى رجالات بيروت الاربعة قد توقفت (لان احدهم استغل قسما كبيرا من الاموال لمصالحه الشخصية) .. وان عادل عسيران ، رئيس مجلس النواب ، سوف يحكم اتفاقا بين مناوئي شمعون المعتدلين ومؤيدي شمعون ، المعتدلين ايضا . واثناء غيابي ، علمت ان السفير هير اخبر الرئيس شمعون ان طبيعة تدخل الجمهورية العربية المتحدة غير معقولة ، اذ لم يجد مراقبو الامم المتحدة الموجودين على مسرح الاحداث اي دليل على ذلك ، وان استغلال مبدأ ايزنهاور الى درجة انزال قوات بحرية اميركية غير وارد على الاطلاق .

كان هذا احد الاسباب التي دعت الى التصديق بان العملية قد نجحت ، ولكن انقلاب العراق في ١٤ تموز سنة ١٩٥٨ ، بدل الوضع .

وردت الى المخابرات المركزية الاميركية معلومات تقول بان هناك مؤامرة ثلاثية تعد ضد نوري السعيد والعائلة الملكية في العراق وكميل شمعون في لبنان والملك حسين في الاردن ولكنها احبطت في الآونة الاخيرة وان السفير الاميركي قرر بان الرئيس شمعون مخول لطلب المعونة الاميركية استنادا الى مبدأ ايزنهاور .

* * *

اعد شمعون الطلب وتقدم بــه ووعده السفير مكلنتوك بان المعونة ستأتيه قبل مضي ثمانية واربعين ساعة ـ دون ان يشير الى ان الاسطول السادس موجود علىمسافة يوم واحد منبيروت.

وصل الاسطول الى الشواطىء اللبنانية في اقــل من اربعة وعشرين ساعة وراح ينزل الجنود على دفعات وقد شهر كل منهم بندقيته المعدة للعمــل بينما احاطت بهــم جماهير رواد المسابح يحيونهم وتسارع بائعو علكة « الشكلس » للترحيب بهم .. امــا عادل عسيران فقــد شاهد الاسطول وهو في سيارته الكاديلاك المكيفة بينما كان في طريقــه الى طرابلس ليحصل علــى موافقة رشيد كرامي ويحكم النزاع بين الطرفين المتقاتلين .

اراد السفير من البحارة الاميركيين ان يثبتوا للناس انهم هنا لدفــع اي استعمار وانهــم سيرحلون حــالما تعــود الامــور الى طبيعتها وذلــك استنادا الى مقررات مبــدأ ايزنهاور ، اما شمعون فقد اراد استخدام المشاة « لتمشيط » منطقة البسطة ـ الحي الاسلامي ـ من المعارضة (دون ان يميز بين المعارضة المشروعة او اي نوع آخر من المعارضة) ، ويوقف ، بالتالي ، كل مساعدة تأتي من سوريا الى الثوار .

ارعبت التقاريــر الواردة الى بيروت عن ثــورة العراق ، ارعبت الجالية الاميركية وخاصة العاملين منهــا وكان افرادها على اتفاق وسط مــع الرئيس شمعون وما سوف يقــوم به ، وباستثناء ذلك كانت افكار الجانبين على نقيض . اما وجهة نظر رجال الاعمال فكانت ، بالاجمع : « قرر اي شيء ، ولكن لا تمنح ثوار بيروت اي حق أو اية تنازلات ومهما كان نوعها . »

وفي النهايــة انتصرت وجهــة نظر السفير مكلنتوك الــذي

استطاع ان يبعد البحارة عن مراكز الثوار ويحول دون اصطدام
الفريقين ، كما انه تجنب اصطدامهم مع الجيش اللبناني ، وبالفعل
استطاع ان يبعد البحارة عن مراكز الثوار وحيول دون اصطدام

* * *

عاش البحارة في لبنان ثلاثة اشهر فصرفوا مبالغ طائلة وامتزجوا باللبنانيين بسهولة ، وذهبوا ، كما قال السفير مكلنتوك ، « دون ان يطلقوا ولو طلقة واحدة » .. وقد قدر الذين كانوا على علم بوضعية الاحوال ومظاهرها المتعددة ، قدروا للسفير موقفه واعتبروا فعلته هذه كتصرف رزين جدا .. ومع كل هذا كانت واشنطن تحصل على تقارير تردها من مصادر اخرى غير السفارة .. كما ان الكثير من هذه التقارير كان يرتكز على فهم جزئي للمسائل وان البعض منها كان مقنعا وخاصة ما كان يكتب منها بلغة دبلوماسية وتجارية ، تتعارض كثيرا مع اسلوب السفراء الادبي .. وعندما كان احد الصحفيين المتنفذين يبدأ بكتابة قصص تشبه مثل هذه التقارير كان يعني ، ضمنيا ، ان السفير لم يبلغ بعد ذروة مجد عمله .. اما قرار دالس ، حول القضية ، كان عبارته الشهيرة : ارسلو ابا ابيض كبيرا .

كان الاب الابيض الكبير هو روبرت مورفي ، والذي عرف عنه انه سياسي اميركي محنك وواسع الاطلاع .

* * *

أرسل روبرت مورفي الى لبنان ، ولكنه فشل في محادثاته لكونه لم يستطع الاحاطة التامة بالمهمة المرسل من اجلها وارتكز

على خبرته وصلابته ليقدم تقريرا مفصلا عرف فيما بعد بانه نظرة عاجلة حول الوضع القائم في لبنان . وعندما امره دالس بالتوجه الى بيروت، كان مورفي يعمل طيلة اثنتي عشرساعة فيامور لا تمت بصلة الى ما يجري في الشرق الاوسط ، ومن المفترض انهجاءليكون كمراقب سياسي يعمل تحت امرة قائد القوات الاميركية التي وصلت الى بيروت . انه حاليا يعمل جاهدا ، مستخدما صيته الذائع ومركزه وجولته التي عرفتفيكتاب « دبلوماسيبينالمحاربين» – وهو الكتاب الذي الفه واعتبر سيرة شاملةلحياتهالدبلوماسية– .

ونقل الي بعضهم ان احدهم قال : « لقد ارسل مورفيالى بيروت ليحول دون انقلاب في السفارة الاميركية .. » ومهما قيل في ان مورفي لم يتفهم جيدا الوضع ، انما من الواضح انهعمل على تفتيحالعقول وانارتها، اي انهسعى لتقريب وجهاتنظر المختصمين .

***

انا لا أود سرد حياة مورفي وشرح مواقفه الدبلوماسية في هذا الكتاب بل ارغب بالتوقف عند حكمة قديمة ، ولعل مورفي كان يعمل بموجبها . تقول الحكمة : « اني استمع الى اقوالكل من الطرفين ، وفي النهاية ، كالمعتاد ، اجد ان الحقيقة تكمن في الوسط » .. واعلق على « الطرفين » فأقول انه عنى بهما : الرئيس كميل شمعون ورجالات بيروت الاربعة ، فالاول هوالرئيس الشرعي المنتخب في البلاد والآخرون هم – في رأيه – زعماءالثوار تساندهم سفارة الجمهورية العربية المتحدة . وفي الدقائق الثلاثة التي اتيح لي فيها ان اجتمع الى روبرت مورفي ناشدته في أنهيجب الاخذ بآراء المناهضين للحكومة وتفهم اوضاعهم جيدا وخاصةاولئك الذين تدعمهم الجمهورية العربية وتجزل لهم العطاء .

استمع الى اقوالي بكل تهذيب وفي اقل من ساعة كان في طريقه الى الاجتماع بعميل الجمهورية المتحدة في لبنان ، وقد راح يقيم اسباب فشله منذ ان بدأ بتحكيم الصراع. كان من المفروض ان يكون اللقاء سريا، كما شرح مورفي مؤخرا، ولكنه كان من الصعب على اولئك السياسيين الاحتفاظ باسرارهم .. وانتشرت الصور فبرز مورفي وممثل الجمهورية المتحدة يتصافحان بحرارة وقد كتب تحت الرسم : « ممثل ايزنهاور يتعاطف مع الثورة» .

***

ان أكثر الكتاب الذين علقوا على احداث لبنان يتفقون في القول على أن نزول البحارة الاميركيين كان عملا دبلوماسيا رائعا. وربما كانوا على حق في ذلك . ومن المؤكد باننا نهب الى نجدة حلفائنا وباننا على استعداد للعمل في طريقة لم يبرهن عنها السوفيات أنفسهم ولم يجربوها ليهبوا الى مساعدة اصدقائهم . ولكن النتيجة كانت ما كان عبدالناصر يبحث عنه . أي ان البحارة لم يستدعوا الى لبنان الا للقضاء على أهداف عبدالناصر منه ، اولا كان رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء هما الشخصان اللذان اراد عبدالناصر أن يراهما في الحكم : شهاب وكرامي . ثانيا ، ان الارهاب تمركز بقوة وأصبح سلاحا فعالا . ولم تمر سوى ايام قليلة ، في نهاية الازمة ، حتى كانت جميع الفئات ، ومن جميع الاحزاب ومختف الديانات ، قد تسلحت ولسان حالهم يقول : « يجب ان نقاتل من أجل ما هو لنا لانه ليس في نية الحكومة ان تمد لنا يد المساعدة » . وسمعت بعضهم يردد في سفارتنا « ان اللبنانيين مجموعة من المشاغبين اينما كانوا » .. ومن العبث ان تنتظر شيئا منهم. ولكن كان هناك امل في تنصيب حكام جدد وجعلهم اقوياء .. الا أن تعاملنا مع قادة الثوار على اسس من العدل

والمساواة ومع رئيس البلاد ساعد جدا على تحطيم مثل هذا الحظ وجعل توفره اشبه بالمستحيل . ثالثا ،يجب ان نضيف ان مبدأ ايزنهاور قد تلاشى كليا وأصبح نسيا منسيا . وهكذا انزاح من امام عبدالناصر مرتد آخر .. ولسنوات عديدة سوف لن تستطيع حكومة لبنانية أن تتعامل مع الغرب مالم يكن عبدالناصر راضياعن هذا التعامل وعلى علم مسبق به .

***

وهكذا ، وفي نهاية عام ١٩٥٨ كان عبدالناصر ، بطرق شتى ، قد بلـغ اوج قوته ـ وهي القـوة التي نعنيهـا في كتابنا هـذا اي : الحصول على اكبر قدر ممكن من النفوذ تجاه الدول الكبرى من أجل خير مصر . واستنادا الى أقوال بعض المراقبين ، نقول ان عبدالناصر لم ينجح في ضم لبنان الى الجمهورية العربية المتحدة ، كما فشل كذلك في الاردن بعد أن غادرت القوات البريطانية البلاد (التي نزلت هناك في نفس الوقت الذي نزلت فيه القوات البحرية الاميركية في لبنان) .. حاول انقلابا آخر وفشل ايضا .. وهـي محاولة الانقلاب في السودان التي فاجأت مخابراته لان البلد كان في طريقه الى الاستقلال التام عن القاهرة.. وعلى الاثر هاجـم رئيس تونس الحبيب بورقيبة .. واتضح لكل من حسبه يود تزعم العالم العربي ان الرئيس المصري يعاني صعوبات جمة وربما فشل في التغلب عليها .

***

وفي السنوات الاربع التالية تعرضت علاقاته مع السوفيـات للانكماش ولكنها عادت تتحسن تدريجيا بينما تردت الى حد القطيعة ،

مع الولايات المتحدة .. وفي الوقت نفسه حصل عبدالناصر على مساعدات خارجية تفوق المليار جنيه استرليني من الولايات المتحدة والبلدان الشيوعية فقط .. كما ان نجاحه فرض نفسه ، حتى في واشنطن ، رغم اولئك الذين ظنوا انه قد فشل في الحرب الباردة عام ١٩٥٧ ـ ١٩٥٨ .

الا أن تدخل ناصر المعروف في الازمة اللبنانية جعل منه عدوا لدودا للشركات الاوروبية وان بعضها كان سوف « يعمل حتى مع الشيطان من أجل مصلحته » .

ومن أجل اعتبارات اجمالية لم تعرف أو تقدر من قبل رجال الاعمال ، تنصلت حكومتنا من السياسة المعادية لعبدالناصر في هذه السنوات الاربع ، الا ان هفواته والاعمال التي كان يأتيها خارج ارادتنا ، جعلت الضغط على معاداته يشتد .. ولكن حذاقته جعلته يرمي بنا ضد الروس ويستفيد من الطرفين معا .

***

ماذا كلفت مصر

السياسة الناصرية الخارجية

في حين كانت مصر طرفا في الازمة اللبنانية سنة ١٩٥٨ والتي حرضت المصالح التجارية الغربية ضده ، كانت كذلك ـ اي الازمة ـ بالنسبة لعبدالناصر والغربيين فقط تشكل قسما امامهم من مدى فسيح سوف تصطدم فيه مصالحهم . وكما سبق وقلنا ، فقد أجاب عبدالناصر على حلف بغداد بان بدأ حملات عنيفة ليطيح بنوري السعيد في العراق والملك حسين في الاردن وكميل شمعون في لبنان .. وقبل أن تنشب أحداث لبنان ، كان عملاؤه ـ منذ مدة طويلة ـ قد البوا اللاجئين لفلسطينيين في الاردن ضد الملك حسين وبدأ يعمل ليجعل الملك سعود ، ملك العربية السعودية ، يمول الحملة ضد حسين . ثم تجمعت المعلومات لدينا على أن نوري السعيد وكميل شمعون هما في وضع آمن يجعلهما يصمدان في وجه الموجة الناصرية اكثر من الملك حسين هدف عبد الناصر الثالث ، ولذلك أرسلنا كرمت روزفلت الى العربية السعودية ليقنع الملك سعود بان يتخلى عن مساعدته وطلبنا اليه كذلك ان ينتقل الى الاردن ليطلع على مدى مقاومة الملك حسين وكيف يمكن أن نقوي هذه المقاومة . برهن كيرمت للملك سعود أن عبدالناصر يود أن يورطه في صراع مع الملك حسين وبالتالي أن يمول الصحف الشيوعية في دمشق وبيروت « وعلاوة على ذلك عليه ان ينتظر مؤتمر القمة الذي دعا اليه عبدالناصر ليعقد في القاهرة في شهر كانون الثاني ١٩٥٧ ويحمل عبدالناصر ورئيس وزراء سوريا صبري

العسلي كي يوافقا على أن تحل المساعدة السعودية مكان المساعدة البريطانية للاردن بعد أن خسرها حسين لانه رفض الانضمام الى حلف بغداد ... وتمت القطيعة بين مصر والسعودية بعد ان عاد الملك سعود من واشنطن واقنعه الاميركيون بالتخلي عن المساعدة وحثوه على اختلاق عذر لعبدالناصر يبرر به موقفه . وحصل نفس الشيء بالنسبة للاردن ، فبعد ان استمال عبد الناصر الملك حسين الى « وحدته » ، استطاع عميلنا كرمت روزفلت ان يقصيه عنه ثانية .

***

ففي عام ١٩٥٣ اوكل عبدالناصر الى راديو القاهرة ـ صوت العرب ـ امر بناء اسطورة القومية العربية وليبرهن له من هم اعداؤه الخارجيين وليقيم معيارا يستطيع الشعب بواسطته أن يميز « الاعداء الامبرياليين في شرقنا الاوسط » ، تاركا له ان يقرر اذا ما كان كميل شمعون والملك حسين ونوري السعيد سيتفقون والمقياس الجديد .

***

الى اين تذهب العلاقات الاميركية مع عبد الناصر واين مكانه منها في لعبة الامم ..؟

يرى عالم الاستراتيجية الفرنسي ، اندريه بوفر ، ان الظفر ـ أي الانتصار ـ في الحرب يتم على طريقتين : الاولى هي اما ان تدمر عدوك تدميرا تاما ، والثانية هي ان تضع نفسك في مكان تستطيع منه فرض الاستسلام عليه . واذا أخذنا بهذا التعريف

للظفر، وبعد ان نلقي نظرة على المرحلة التي اعقبت حرب ٥ حزيران، يثبت لنا ان اسرائيل لم تظفر بشيء في حرب الايام الستة والسبب هو ان عبدالناصر برز بعد هذه الحرب ـ وهو كحاكم لمصر ، بـرز أقوم بكثير منه لو أنه لم يخض غمارها أو عمل على تجنبها . وهنا نتساءل : ماذا سيفعل عبدالناصر لو اعترضته مسألة مشابهة في المستقبل ؟ والجواب يجده القارىء الذي قرأ كتابي هذا وتمعـن فيه بدقـة .

ما هي الحدود التي سـتـذهب اليهـا سياستنـا مـع عبدالناصر الان ؟ ومن خلال هـذه الدراسة توصلت الى الاعتقاد بان سلوك عبـدالناصر كان بالنسبة للظروف التـي كابدهـا ، ولا اظنه الا وقـد تصرف كما يتصرف اي شخص آخر له نفس العقلية وذات الادوات . فانا احب عبد الناصر شخصيا وقد لا اعرف شخصا آخر اسر بقضاء امسية معه في الحديث والمرح كما اسر مع عبد الناصر .. فهو من اشجع الرجال الذي عرفتهم وغير قابل للتحول ، وهو بانسانيته من اعظم القادة الذين سبق لي شرف التعرف اليهم .. كما انه يتحلى باحساس مرهف في دعابته ونكاته .. ويخطأ اولئك الذين يظنون انه يتصرف من خلال نزواته وكبريائه ولا حتى من خلال نوازع اخرى صغيرة او تافهة ..

***

لقد أقدم عبدالناصر على سلوك الطريق الذي رسمناه له.. ومن المؤكد انه لو وضعنا له برنامجا آخـر لا نتهت الامور علـى شكل آخر .. كما ان دوره في مستقبلنا يتوقف على نوع المستقبل الذي سنحدده نحن لانفسنا .

ويخطر ببالي ان اطرح السؤال التالي :

اين يقف مستقبلنا في « لعبة الامم » ؟

لست أدري اذا ما كان مركز الالعاب لا يزال قائما في واشنطن بل الاكيد منه هو ان مثل هذا النوع من الممارسة لا يزال يعمل به ويمارس في الكثير من جامعاتنا وخاصة الرئيسية منها .. والشيء الآخر الذي انا واثق منه كل الثقة هو ان دبلوماسيينا الذين كانوا يعملون قبل عام ١٩٤٧ ، كانوا جميعهم سذجا فيما يختص بالشرق الاوسط ، ولكن نفس الدبلوماسيين قد اجتازوا الآن طريقا طويلا وتفتحت أمامهم آفاق جديدة .

وهنا نستطيع ان نقول ان السياسة غير المنتجة في البلدان المتخلفة ، وهي التي كنا نراها ضرورية للتنظيم الديموقراطي، نفس هذه السياسة ، نستطيع ان ننظر اليها الآن مع استقلال تام في الرأي ، وهذا ما لم نكن قادرين على مثله قبل عشرين عاما . ومن الان فصاعدا، انها ستتيح لنا الفرصة وتمكننا من النظر الى الشؤون السياسية التي تتعلق بالبلدان المتأخرة ، كما ينظر الطبيب الى المريض الموبوء .. اي ان النظرة ستكون نظرة اهتمام ، انما دون تورط او تدخل .

***

وفي اعتقادي ان هذا الوضع الجديد سيحتم على أن يكون لكل سفارة اميركية ، في اي بلد كانت ، ان يكون لها سكرتير ثالث تنحصر مهمته في تقصي اخبار المامبوجامبو والهيبي جيبي

والاشتراكيين الوطنيين والوطنيين الاجتماعيين ، وغيرهم ، وغيرهم .
وعندما تصل مثل هذه التقارير الى واشنطن سيعكف على دراستها العلماء بالعلوم الانسانية وحياة الانسان وليس الخبراء السياسيون
وسأورد الآن ، على سبيل المثال ، بعض الاسئلة التي تسترعي الانتباه اكثر من غيرها ، فأقول : كيف تعالج حكومة (ازانيا) - مثلا - مشكلة تضخم السكان ؟ كيف تقوم بتطوير صناعتها وزراعتها؟

كيف تزيد الطاقة الانتاجية لقوتها العاملة ؟؟

***

واصل الآن الى الفكرة الرئيسية مما تقدم فأقول انها كمايلي:
من المسلم به أنه هناك قطاع من الجنس البشري يريد أن يضع انسانا فوق سطح القمر ، وان يجد علاجا لاخبث الامراض المستعصية ، السرطان ، كما يأخذ على عاتقه ايجاد حل للمشاكل الناشئة عن تضخم السكان ، ومعرفة سبب نقص المواد الخام المتزايد !

ان من يريد ان يلحق بهذا الركب ، سوف تكون له فيه مكانة وبدون أن ننظر الى العرق او اللون أو الدين . . وانصح الذين لا تزال امور حرق السفارات وتدميرها تهمهم ويرفضون المادية الغربية ، انصحهم كما أنصح كذلك جميع الذين يريدون «التحرر من الامبريالية ، بان يباشروا عملهم وينصرفوا اليه مزودين ببركتنا !!

وليس لدينا من علاج متوفر الكمية كما هو متوفر بالنسبة للتحرر من الامبريالية .

المخابرات المركزية

هي المحرضة على احتكار السلاح

في ١٦ تموز ١٩٥٥ امضيت فترةبلغت السنتين في القاهرة، وبعدها عدت الى واشنطن بعد ان قضيت شهرا كاملا واناڤي الطريق اليها . وما ان وصلتها حتى وجدت رسائل تنتظرني مـن بايرود وعبدالناصر . . والاثنان يطلبانالي ان اعمل ماڤي استطاعتيلتسهيل السلاح الذي تطلبـه مصر . ووجدت مـع الرسائل كذلـك ، صورتين لكتابين متبادلين بين كل من جيمالن ـ رئيسي ـوهربرت هوفر (وكان آنذاك نائبا لوزير الخارجية) .

فقد طلب الن ان اعار الى وزارةالخارجية ولكنه لم يحـدد الفترة ، وذلك لانضم الى فريق حديث اطلق عليـه اسم « لجنة التخطيط السياسي للشرق الاوسط » . واتضحلي ان الهـدف الاول لهذا الفريق هو ايجاد الطرق الممكنة والتي قد يستفاد منها وذلك حرصا على تنمية الصداقة الحديثة التيقامت بيننا وبيـن عبدالناصر .

***

ان اول عمل قمت به بعد عودتي الى واشنطن كان البحث في موضوع صفقة السلاح مع الرجـل الذي حل محل هانـك بيرود

كمساعد لوزير الخارجية والمختص بشؤون افريقيا والشرق الاوسط.
ان هذا الشخص كان يدعى جورج الن . ولكن الاخير لم يكن يعرف سوى انه جمد لاسباب ادارية بحتة ، ثم طلب الي ان ارتاح في المكتب المجاور وحيث يتاح لي الاطلاع على كل ما يرد من رسائل متبادلة بين القاهرة وواشنطن .. كل ذلك في الشهر الذي منحه لي كفترة استريح فيها واستعيد نشاطي بعد ان ارهقني السفر والعمل المتواصل . وهكذا فعلت ونفذت كل ما طلب الي ان اقوم به ، ورحت اتابع الرسائل تروح وتجيء وكأني لاعب تنس ماهر يتابع بشغف تنقل الكرة في لعبة حامية .. وبعد ذلك تبين لي ان ما اقوم به قد غاص في الاجراءات البيروقراطية وانتهى عندها بمدة وجيزة مما اثار حيرتي ودهشتي .

اشتملت بعض الملفات الاضافية على كل المناقشات الدائرة حول ما اذا كان عبدالناصر يمكنه ان يحصل على ما يطلبه من معونة عسكرية يطالب بها ولكنه لم يحدث ان أكد لنا يوما بانه لن يستخدم معونتنا العسكرية ضد اسرائيل . وفجأة خسرت المفاوضات اهميتها بعد ان فوضني سفير مصر في اليوم التالي بانه من الممكن ان نضغط على عبدالناصر ونزوده بمواد استعراضية لا تتجاوز قيمتها المليوني دولار فقط .

***

ومن الموضوعات التي اشتمل عليها الملف ، موضوع هام وان لم يكن محزنا ــ دراماتيكي ــ في حد ذاته . ويتلخص الموضوع في الآتي : وردت برقية من بايرود جاء فيها انه من الافضل ان نفكر وندرس احتمالا هو ان يبادر الروس الى تقديم مساعدات عسكرية لمصر . وقال انه يجب أن نقدم معونات لعبدالناصر ــ ولو رمزية ــ

والا فانه سيقبل اي عرض سوفياتي في الحال .. وجاء تقرير مستعجل من المخابرات المركزية يؤكد ان العرض قد قدم فعلا كما ان الن اصر على ان العرض السوفياتي امر ثانوي وليس ذو شأن . واضاف بايرود ان النفوذ السوفياتي سيزداد في منطقة الشرق الاوسط اذا ما اقدمت روسيا على مد عبدالناصر بمختلف انواع المعونات التي يريدها . ومن الطبيعي ان يثير امر كهذا القلق في لجنة التخطيط لسياسة الشرق الاوسط .. ومن المؤسف ان تقريرا ما لم يتخذ .. وفي شهر ايلول وردت رسالة الى روزفلت من عبدالناصر يعلن فيها انه على وشك توقيع اتفاق مع السوفيات .. وبامكان روزفلت ان يحضر الى القاهرة وهو يرحب به اذا استطاع او كان في نيته ان يثنيه عن توقيع مثل هذه الاتفاقية . وفي صباح اليوم التالي كنت انا وروزفلت في طريقنا الى القاهرة .

وجدنا في المطار أحد اعوان عبدالناصر وقد حضر خصيصا لاستقبالنا ثم رافقنا الى شقته الواقعة في الدور الاخير من مبنى مجلس قيادة الثورة .

سر عبدالناصر جدا وادهشه تصرف روزفلت كسياسي لبق .. اذ أن هذا قال له بالحرف الواحد ـ بدل ان يثنيه عن قبول سلاح السوفيات ـ قد تزعج الصفقة بعض الناس اذا كانت ضخمة كما تقولون ، ولكنها ، دون شك ، ستجعل منك قائدا عظيما ، وانا ارى انه عليك ان تستفيد من هذه الشعبية المؤيدة لك وتقوم باعمال هي على مستوى رجل دولة ، ولست ارى ما يقلل من مكاسبك لو انت اعلنت ، على سبيل المثال : ان هدفنا من الحصول على مثل هذه الصفقة هو لامور دفاعية بحتة .. واذا كان الاسرائيليون يرغبون بالانضمام الى ايجاد حل مشترك واحلال سلم دائم في المنطقة فانهم سيجدونني على استعداد دائم لذلك .. » .. فان لم ترغب

بهذا فقل شيئا آخر يشبهه .

ابتهج عبد الناصر بهذا الاقتراح وقال : « يا لها من فكرة رائعة . » .

واستمرينا نناقش الفكرة حتى منتصف الليل .. وتم الاتفاق على ان يعلن عبدالناصر عن الاسلحة في بيان ضخم ، وذلك من اجل اثارة الحماس في نفوس التقدميون في جميع انحاء الوطن العربي وكذلك سيفعل المؤيدون لنا في نفس المنطقة ، يلي ذلك حملة دولية من شأنها ارضاء جميع الاطراف وتخفيف حدة التوتر العالمي ،وفي نفس الوقت يستمر عبدالناصر ، على الصعيد الداخلي ، ينفذ مشاريعه الاجتماعية والاقتصادية ، وذلك بفضل المساعدات الاميركية .

***

يتضح من ذلك ان جميع الافتراضات كانت محتملة .. وكان على عبدالناصر ان يلقي خطابا في متخرجي مدرسة الطيران بعد يومين وتوقعنا ان يضمن في خطابه فحوى ما تم الاتفاق عليه وخاصة النبأ الهام الآنف الذكر ـ نبأ صفقة السلاح السوفياتي .. ومن جملة الامور التي اتفقنا عليها هو ان اكتب انا مسودة الكلمة التي سيتضمنها خطاب عبدالناصر ويقوم هذا الاخير باعداده ، في الليلة التالية ، مع كيرمت روزفلت ...

ساعدتنا جماعة من اعوان عبدالناصر ، في الصباح ، على اعداد النص الا أن بايرود كان غائبا لانه لم يعلم بوجودنا بعد في القاهرة. وعند الظهر زارنا وفدمن الشخصيات. جاؤا يعلنون رأيهم في مايجب

ان يقال والا يقال في البيان .. واذكر من هؤلاء : مصطفى امين المسؤول عن صحيفة « اخبار اليوم » ومحمد حسنين هيكل ، أحد امناء عبدالناصر ، وحسن التهامي المساعد الاول لعبدالناصر ، ثم جيم ايغلبرغر من السفارة (١) ، وحضر معهم السفير المصري في واشنطون ، احمد حسين ، وغيرهم .. والف الجميع وفدا ضخما .. وبدا لي انهم كانوا على علم بنبأ صفقة السلاح التي عقدت مع الاتحاد السوفياتي ..

***

ورغم ما بذلناه من جهود ، جاءت المسودة قصيرة ولا تزيد عن بيان بسيط ضم النقطة التي كنا نود ايضاحها ومن شأنها الا تمس احدا وتجرح شعوره والتي ما كانت لتترك كثيرا من الدراماتيكية في نفوس الجماهير كما كان يود عبد الناصر ..

عدنا الى منزل عبدالناصر في تمام الثامنة من مساء اليوم التالي وكانت السفارة البريطانية في الجانب الآخر المقابل لنا من نهر النيل .. كانت الجلسة هادئة اذ لم يكن لدينا ما يستدعي المناقشة. وافق عبدالناصر على المسودة وابدى استعداده ليضمنها في خطابه بكل سهولة ، الا انه اقترح تعديلا واحدا هو انه لا يستطيع ذكر عبارة الصلح مع اسرائيل بل سيقول :« تخفيف حدة التوتر بين العرب واسرائيل » .

ارتاح روزفلت الى هذا التعديل واعتبره خطوة كبيرة نحو مآربنا .

---

(١) اخبره هيكل بوصولنا ولكن الاخير لم يخبر بايرود !!!

بعد ذلك جاء عبد الناصر بزجاجة ويسكي ممتاز ، يحتفظ به عادة من اجل الزوار الكبار ، واذا بجرس الهاتف يرن . كان المتحدث احد الضباط الحراس من الطابق الادنى ، فقال : ان سفير بريطانيا ، هامفري تريفاليون يطلب موعدا مستعجلا جدا .

***

ورد عبد الناصر على ضابطه يقول :

ـ ماذا تراه يريد ؟

واجابه روزفلت :

ـ لا شك انه جاء ليحدثك عن صفقة السلاح السوفياتية ..

وقال عبد الناصر يجيب :

ـ كيف تراه عرف بها ، انها لا تزال سرا .

ورد روزفلت :

ـ ان السوفيات يا جمال سينشرون الخبر وليس في مصلحتهم ان يبقى الامر سرا ، رغم ان معاونيك يحافظون عليه ويعملون على عدم تسربه .

هز عبد الناصر رأسه مقتنعا واستمرينا نتطلع الى الانوار

تشع على حديقـة السفارة البريطانية تعكسها صفحة ميـاه نهر النيل .. وفي الوقت نفسه كنا نراقب السيارة تشق طريقها عابرة الجسر الى الشارع الاسفل ، وقد خرجت من الشارع الرئيسي.

انصرفت انا وروزفلت الى مناقشة الموقف الذي يتخذه عبد الناصر مـن السفير البريطانـي الذي جاء فجأة ولم يكـن يعلم بوجودنا هنا ، شأنه شأن سفيرنا بيرود .. ومرد ذلـك الى ان وزير الخارجية كتم السر ولـم يرد ان يخبر بقيـة الاعضاء في الوزارة زيادة منه في الاحتراز . وهو لم يخبر سفيره في القاهرة ولا البريطانيين عن دعوة عبد الناصر لنا ، ولا اننـا جئنا لاقناعه وحثه بالاقدام علـى خطوة تتميز بالجرأة وتؤدي الى تطور ونمو البلاد اقتصاديا ..

وعدنا نتساءل ماذا سيقول عبد الناصر للسفير البريطاني ؟

* * *

وكان روزفلت قد وجد الجواب فقال :

ـ اذا اردت ان تأخر الموضوع حتى مساء الغد ، عليك ان تخبره بان الاسلحة آتية من تشكسلوفاكيا ! وهكذا تبعد الشبهة ولن يستغرب هو الامر ، فالمعروف ان هـذا البلـد يعتبر مـن مصدري الاسلحة الرئيسيين الى اسرائيل .

ونزل عبد الناصر يخبر السفير البريطاني بان الاسلحة من براغ وليست من موسكو .. الا ان السفير لم يفهم شيئا ، فغادر

المكان وهو مقتنع بان الاسلحة مـن روسيا .. وقـد قبلها عبد الناصر .. ولم نستطع مقابلـة السفير البريطاني هامفري كي نصحح معلوماته حول هذه النقطة الا بعـد ان ابرق الى لنـدن وسمحت وزارة الخارجية البريطانية باذاعة النبأ .

* * *

دام اجتماع عبد الناصر والسفير فترة لم تتجاوز الخمس دقائق . ثم عدنا الى مراجعة مسودة الخطاب الذي سيلقيه عبد الناصر في متخرجي الطيران .. بعد ذلك جاءنا عبد الحكيم عامر وزكريا محي الدين لدعوتنا الى تناول طعـام العشاء على مائـدة السفير احمد حسين .

امضينا ساعة من المـرح تعرضت خلالها لمضايقات صديقي زكريا محي الدين الذي لم يعرف الا منذ ثوان اننا في القاهـرة . ولم نجد موضوعا نتبادل النكات فيه الا الصورة التـي رسمناها للسفير البريطانـي لـو قمت انا وروزفلت بالدخـول عليهما في الاجتماع حاملا بيدي كأس الويسكي .. واقول :

ـ اخـي جمال ، لقـد انتهت الصودا .. فمن ايـن ترانا سنحصل على المزيد ؟!

* * *

كان يحلو للصحف الشيوعية ، والمناوئة للغرب ، ان تظهر شركات البترول الاميركية وكأنها مجموعة مـن الافراد الانانيين وانهم يسعون وراء السلطة والربح المادي بطريقـة جنونية وليس

لديهم اي نوع من الشعـور بالوجدان ، وانهم ينزلـون الى اي مستوى كان ، ومن اجل تحقيق اهدافهـم الخاصة فقط . انهم يساندون مرشحيهم في الانتخابات ويعملون على الفساد والرشوة ويبيعون الضمائر بابخس الاثمان .. كما يطيحـون بالحكومات التي تقف حجر عثرة في طريق نفوذهم ومصالحهم . ويجدر بنـا ان نقر بالحقيقة مهما كان نوعها ومهما كانت طبيعة هؤلاء الرجال. فنقر بانـه توفرت لهـم مختلف ضروب الخبرة ولا فرق اكانت اقتصادية ام اجتماعية ام انسانية ، ام علمية ، ومعنى هذا انهم ليسوا من ذوي الخبرة بشؤون المال فقط بل هم غير ذلك اكثر فاكثر .. ومن هنا كـان رسوخ ايمانهم بان الحكومات المستقرة والمجتمعات المتقدمـة اجتماعيا هي الاساس في نجـاح عملياتهم التجارية .. كما انهم ينفقون الملايين من الدولارات على مشاريع تحمل الد اعدائهم على انها لخير المجموع .. وانهـم يعارضون بشدة كل نفوذ يضعف من سيادة اية حكومة لهم فيها مصالح ، بما في ذلك نفوذ رجـال مخابراتها ، او النفـوذ السلبي وكذلك النفوذ المفقود لرجال سفاراتنا الرسميين .. وقد اعلن احدهم وجهة نظره مرة ، فقـال : « ان طريقـة التفاخر العرقي التي يعتمدها العرب لا تستهويني » .

* * *

بعد التوقيع على حلف بغداد مبـاشرة ، اضافت اذاعـة صوت العرب برامج جديدة وزادت مـدة البث ساعتين وراحت تحذر العرب من « اعدائهم » . ومنـذ ذلك الحين بدأت اذاعات القاهرة تشتم وتندد بالعملاء .. حتى انها دعت في اواخر عـام ١٩٥٧ الى الاغتيال وحرضت على الانقلابات . كما ذكرت احدى هذه الاذاعات في حديثها عن نوري السعيد فقالت : « لقد وجد

الان ، الخائن الحقيقي » واقترحت بان على العراقيين ، اذا كان لديهم شرف على الاطلاق ، عليهم ان « يقتلـوه ويرموا بجثته الى الكلاب » .

حصلت المخابرات الاميركية والبريطانية على مثل هـذه الاذاعات بواسطة مؤسسة تعرف باسم « مركز البث والاستعلامات الخارجية » . . فهذه المحطة موجودة في قبرص وتتلقى الاذاعات المسموعة من الشرق الاوسط وافريقيا وقسم مـن روسيا . وعندما دعى مذيع صوت العرب الى اغتيـال نوري السعيد ، بدأ المحللون في واشنطن ولندن ــ وكذلك نظنهم فعلوا في موسكو وباريس وبيكين وفي عدة عواصم اخرى ــ بدأوا دراسة فعليـة لاذاعات القاهرة وبطرق لم تحدث منذ هتلر .

* * *

في اوائـل سنة ١٩٥٦ ، كانت المخابرات الاميركية تراقب اذاعات القاهرة وتتعرف الى التقاطها في جميـع انحاء العـالم العربي ، ابتداء من العراق وانتهاء بمراكش ، فوجدت ان هـذه الاذاعات مسموعة جـدا حتى في وسط الصحراء وان استمرار فعاليتها ضروري لتكييف مواقف العرب مما يحمل علـى الاعتقاد بانها تعمل في نفوسهم عمل التنويم المغناطيسي ، حتى ان الكثير من المستمعين المثقفين يغيرون من مواقفهم دون ان يعلموا لماذا .

كان نوري السعيد غير معني بالامر نسبيا ، اما فكرته للرد على صوت العرب هي ان يقوم راديو بغداد ببث مسرحية او اغنية هزلية تدور حول ساعي البريد ــ يعني انه اراد احراج عبد الناصر لكون والده قد عمل كساع في البريـد ولكنه حاليا يتمتع بصيت

مصدره شعبية ابنه ــ واستمرت حرب الاذاعات بين البلدين عنيفة جدا وبلغت درجة قصوى من السخافة والسخرية .

* * *

حاولت حكومة الولايات المتحدة ان تحد من نشاط اذاعات القاهرة بشتى الوسائل ، بعد ان بدأت تعم افريقيا وتصل الى اقصى مستمع فيها . وجدت ان راديو لبنان يفي بالغرض نظرا للتسهيلات التي يقدمها .. وعندما جلس الدعاة الاميركيون مع المخططين اللبنانيين ظهر لهم ان اية دعاية فعلية سوف تعرض حياة لبنان الى الخطر وتضرم النار من جديد بين سكانه المسلمين والمسيحيين ، فوجدوا من الافضل ان يبقى لبنان بعيدا عن اجواء هذه الحرب الباردة ، وعندئذ بدأ البحث بانشاء محطة جديدة في أضانا ، في تركيا ، او مساعدة البريطانيين لتقوية اذاعة قبرص. وبالفعل فقد حدث تقدم ملموس في تلك الناحية .. واتضح في الحال ان بناء اذاعة جديدة لمحاربة اذاعات القاهرة هو اشبه بمن يحاول نقل هوليود الى دي موان في ايويا . كانت القاهرة ــ ولا زالت ــ تملك عددا كبيرا من المذيعين والفنيين والمغنين والكتاب لا يضاهيهم احد في اي بلد من بلدان العالم العربي قاطبة . وآخر ما تم الاتفاق عليه هو انتظار مؤاتاة الفرص لضرب الاذاعات واسكاتها . واخيرا جاءت الفرصة ، فقد القى احد طياري سلاح الجو الملكي البريطاني ، اثناء ازمة السويس في تشرين الاول عام ١٩٥٦ ، القى قنبلة فوق دار الاذاعة ولكنه اخطأها .

* * *

على الرغم من قوة فعاليته ، فقد اصبح راديو القاهرة ،

سنة ١٩٥٧ ، عملية باهظة الثمن .. مع ان الذكاء والعمل السياسي اللذان نتجا عنها كانا باهظي الثمن ايضا . ولم يكن هناك من طريقة لتقييم ما كلفته ثورة لبنان لمصر سنة ١٩٥٨ ، ولكن مداخلات الغرب في هذه العملية كشفت سطحيا ، انها ـ اي الثورة ـ كلفت ملايين من الدولارات ، وان الحكومة اللبنانية ، بعد الازمة حصلت على معلومات وثيقة تفيد بان احد رجالات بيروت الاربع تسلم مبلغا يقارب سبعة ملايين دولارا .

كانت التكاليف المباشرة العائدة للعمل السياسي قسما فقط من الكلفة العامة . ولكن الكلفة الحقيقية هي الحفاظ على وحدة البلاد . فقد اخبرني احد قواد عبد الناصر ذات مرة : « اذا ما حلت مصيبة وفصلت مصر عن بقية العالم ، دعونا نعوم كجزيرة في اي محيط عظيم ودعوا لنا النيل وجميع مواردنا ، وسنعرف كيف نعيش جيدا » . فبعضنا سيغرس الوطن وآخر يحيكه ، والبعض الآخر سيزرع الرز والذرة وآخرون سيصنعونه، بعضنا يصنع الاحذية والبعض الآخر يلقن الطلاب دروسهم ويدير المدارس. ولكن عندما نصبح قوة عالمية فاغلبية شعبنا ستسعى الى الوظائف وبها تكتفي وهذا لا يساعد مطلقا في اعداد الوطن وبنائه ! »

* * *

ولكن هذا بدا فيما بعد انه ليس وسيلة لان تعزل مصر نفسها عن العالم .. حتى ولو ان المصريين اصبحوا انعزاليين وفتشوا ليجعلوا من مصر دولة تكفي نفسها بنفسها .. فان العالم الغربي سوف يستمر يضغط عليها ، وهذا ما نادى به بعض ضباط عبد الناصر . بعد كل هذا ، وحتى ان الولايات المتحدة التي كانت

تشجع من وقت لآخر على مثل هذه العزلة الوحيـدة من نوعها ، جاءت ـ اي الولايات المتحدة ـ تؤيد عبدالناصر ، مبدئيا لكي يعطي ويكون مثلا لبقية العالم العربي .

« الزعامة مثلا » ، وهذا ما كان يدور في خلد الاميركيين . فكانت حكومتنا تسر جدا عندما يبرز زكريا محي الدين على المسرح السياسي المصري : كرئيس للوزراء او نائب رئيس الجمهورية او رئيس منظمة سياسية وغيره ـ ليس لانه يحبذ الاميركيين بل لانه كان يدافع ، وبدون معاوني عبد الناصر ، ويمثل التقارب البناء لكسب الزعامة على العالم العربي باعطاء مثل جيد لهم ..

٥ حزيــران ١٩٦٧

الحرب العربية الاسرائيلية وآثارها

ما هو نوع الستراتيجية الجديدة التي ستناسب زعيم كعبد الناصر بعـد حزيران ١٩٦٧ ؟ دعنـا نوجز القـول بانك ستقبل بالآتي :

ــ ان عبد الناصر يجب ان يكـون من نوع الاشخاص الذين تعتبر قوة الشخصية مهمة جدا لديهم .

ــ وانه منطقي لزعيم كهذا ان يبحث عن « قاعدة قمعية » وان قاعـدة كهـذه سوف تشمل امورا كثيرة فتتعدى الجيش وغيره .. مع العلم ان بلدا كمصر لا يحتمل هذا مطلقا .

ــ ان كسب التأييد الشعبي من شعب مغلوب علـى امره والذي يعيش في بلـد كمصر ، يتطلب اتخـاذ مواقف لم تكن في السابق مجدية .

ــ ان تأييد عبد الناصر الشعبي ناتج عن كونه « حياديا » وان ذلك يدعوه ، اذا ما اتبع سياسة عدم الانحياز ، الى اعتبار الحياد ليس كهدف وحسب بل استراتيجية تجاه الدول الغربية الكبرى .

ـ وانه ما ان تصبح استراتيجية كهذه في حيز العمل ، حتى يبدأ بترقب فعاليتها ورفعها الى اعلى مستوى تستطيع ان تبلغه وذلك بالحصول على مساندة دول اخرى لتنضم اليه ويجابه الدول الكبرى كمجموعة متحدة .

ـ وما ان تبدأ استراتيجية الوحدة تعطي ثمارها (كما حدث بالفعل) حتى يجبر على استعمال سلاح قوي واساليب جديدة ضد المرتدين ، تماما كما يفعل منظمو اي نوع كان من الاتحادات .

* * *

ان الجواب على كل سؤال من هذه ، بالنسبة لاي شخص لم يتعرف الى هذه التجارب ويسير في طريقها ، هو سهل جدا . فالاجابة هنا اشبه بالرد على قضية ذلك الرجل الذي كان يربح سنويا مبلغ خمسين الف دولارا في السنة ، وفجأة هبط ربحه حتى بلغ اثني عشر الف دولار فقط . شذب مطامحك واجعلها تتناسب مع مدى عقلك للامور ، وكن سعيدا كما يجب ان تكون من دون دخلك الجديد ، وهذا ما طلبه احد رجالنا ، روبرت اندرسن ، وزير المالية الاميركية السابق واحد اصدقاء الرئيس جونسون الحميمين . ففي كانون الثاني سنة ١٩٦٧ ، اعد اندرسون يعاونه موظف من السفارة المصرية ، محمد حبيب ، اعدا لائحة باسماء رجال الاعمال والمولين الاميركيين الكبار وكانوا كلهم من اصدقاء جونسون ، واقترح حبيب على عبد انا صر
وكانوا كلهم من اصدقاء جونسون ، واقترح حبيب على عبد الناصر

* * *

رحب عبد الناصر بزيارتهم الى القاهرة فوص
وتأثروا جـدا ، ليس بالتطور الاقتصادي المصري
بشخصية عبد الناصر ذاته . وعندما عادوا الى واش
الرئيس جونسون على انطباعاتهم المؤيدة . بدا هذا لمدة من
انه من الممكن لحكومة الولايات المتحدة ولعبدالناصر انيضعا صداقة
بلديهما في اطار جديد مـن التفاهم والتعـاون ، والتي بواسطتها
سيصرف عبد الناصر النظر عن افكاره الوحدوية (مع انه بامكانه
ان يكون وحدويا بهذه اللعبة الجديدة كما يحلو له) ، فيحد من
طموحه ليتناسب ومعطياته وينصرف كليـا الى بنـاء مصر واننا
ـ نحن الاميركيين ورجال الاعمال ـ سنسانده ، اقتصاديا ، اذا
ما هو اراد ذلك فعلا .

ولكن تفاؤلا كهذا لم يأخذ بعين الاعتبار ، او لنقل انـه لم
يحسب حسابا للفوضى التي ستنجم عن فكرة البناء الداخلي في
مصر .. فالامر ليس بالسهل ويضع عبد الناصر امام اعمال كبيرة
قد يصعب عليه تنفيذها، ولربما جاءت ضربا من المستحيل . كان
يطلب منـه ان يخفض عـدد افـراد الجيش الى خمسين الف
والموظفين الى مائة وثمانين الف ؟ العودة عن الصناعات المؤممة ؟
فك رباط الاتحاد الاشتراكي العربي وتركه للحظ يتلاعب به ؟ ان
مثل هذه الاعمال عندما يطلب اليك فعلا ان تقوم بها تصبح فجأة
غير واردة في تفكيرك .

* * *

وعندئذ كـان النفوذ السوفياتي . يتفوق السوفيات علينا
لان بامكانهم كبح جماح عاطفتهم عندما يشتد الضغط عليهم ..
كما ان سلوك عبد الناصر وتصرفه في المنطقة اتفق مع اقتراحاتهم

تماما كما كانت .. وكما اخبر عبد الناصر سفيرنا فقال : « ان ما اقوم به في اليمن وفي اي مكان آخر كنت لانفذه كذلك وحتى لو لم تكن روسيا موجودة . » وباليد الاخرى ، مع مسؤوليتنا تجاه اسرائيل والملك فيصل ، كان بامكاننا مساندة عبد الناصر على اساس « ان ما تقوم به من عمل جيد نحن وراءه » .

ومباشرة بعد ذهاب الاميركيين ، شغلت حالة المنطقة تفكير عبد الناصر حتى ان اية فكرة بالعودة الى تقييم « مصر الاولى » لم تعد واردة في خاطره على الاطلاق .

* * *

ان الاحداث ابتداء من تلك اللحظة، وحتى نشوب الحرب مع اسرائيل في حزيران سنة ١٩٦٧ ، يشرحها « والتر لاكير » ببراعة، في كتابه الرائع « الطريق الى حرب ١٩٦٧ » . وفي رأيي ان هذا الكتاب جدير بالثقة واحسن من اي كتاب آخر كتب حول هذا الموضوع . تحدث عن جولة استمرت طيلة سنوات وتناولت البحث في « مصالح السوفيات في الشرق الاوسط » . ان البروفسور لاكير قادر ، بقدر ما انا عاجز ، على ابراز وابانة كيف اراد الروس عرض القوة المصرية . ولكن جنديا واحدا لا يصنع الحرب . وعلى ضوء ما سمعت من اصدقائي المصريين ، كونت فكرة واضحة عن ذلك . وكذلك ملت نحو الاتفاق مع شرح البروفسور لاكير ، كيف بدأت الحرب ، اي : « ان عبد الناصر زلت به القدم فيها ، وان اسرائيل كانت مرتبكة وغير مهيأة لها ، وان الذكاء الروسي كان غير كفء وحجة روسيا ضعيفة وان اميركا قادرة على فعل كل شيء » . وباستثناء دور هذه الاخيرة يمكنني ان اقول : « ان عبد الناصر لم يزج في الحرب تماما ولم

تعثر به القدم وان اسرائيل كانت مستعدة وليس مرتبكة . وان عبد الناصر خطط لعمليته في الوقت الذي كان فيه زكريا محي الدين ، نائب الرئيس يستعد للذهاب الى واشنطن ومقابلة الرئيس جونسون .. ولم تكن اسرائيل راغبة في ترك عبد الناصر يذهب بعيدا ويحقق انتصارا جديدا بسد مضايق تيران وطرد البوليس الدولي . وعلى الرغم من تأكيد اسرائيل للرئيس جونسون بانها ستتريث حتى سفر زكريا محي الدين ، الا انها عادت تهاجم في صباح الخامس من حزيران . وفي الوقت الذي كان مفروضا ان يسافر فيه زكريا محي الدين الى واشنطن .

* * *

لا اعلم ماذا حدث في تل ابيب وواشنطن ، انما اعلم جيدا ماذا جرى في موسكو ، كما حرص اصدقائي المصريين على احاطتي به . واستنادا الى ذلك يمكنني ان اساهم واخبر ماذا رأيت في القاهرة :

١ ــ كان اهتمام عبد الناصر وضباطه قبل الحرب بشهرين ، يدور حول الاهتمام باقتصاديات البلاد . ففي اوائل ذلك العام ، احصى فريق من الباحثين العاملين في مؤسستي الشخصيات الاكثر نفوذا في مصر والتي تملك ذهبا وعملة صعبة منذ انقلاب ١٩٥٢ ، واضافوا الى ذلك مجموعة المساعدات الخارجية التي حصلت عليها الحكومة ، يضاف الى ذلك الصادرات ما بين منتصف عام ١٩٥٢ ونهاية عام ١٩٦٦ ، ومن الحاصل طرح المختصون جميع المصروفات .. فجاءت النتيجة بان العجز في الميزان التجاري المصري هو اكثر من اربعمائة مليون دولار يضاف اليها الديون المستحقة والتي عجزت مصر عن دفعها في حينها ..

واستنادا الى تقرير البروفسور لاكير كان احتياط مصر من الذهب اقل من ٤٠ مليونا ومن العملات الصعبة اقل من ٤٦ مليونا .. ان نظرة شاملة علــى هــذه الارقام تشير الى ان مصر هي الان في طريقها الى الافلاس .

* * *

٢ ــ لسنوات طويلــة ، كنت اعتبر حكم عبد الناصر اكثر الانقلابات قوة وفعالية في العالم العربي . ولا زلت افكر به . ولكن في اذار ونيسان عام ١٩٦٧بدا ان عبد الناصر قد بلغ آخر الشوط وهذا ما عرفه هو ــ وعرفه ضباطه كذلك ــ وان نهاية العرض قد انتهت . كانت حكومتنا ــ التي تكلفت اكثر من خمسمائة مليون دولار في ابان الازمة او بالاحرى ضغطنا السياسي ، هو المقياس ، وان مصر ، وبواسطة جهابذة الخيال ، لم تلاق بعد المقياس الذي ستسير عليه . وتحدث وارد اليوت ، احد المحامين النشيطين ، في مجلة جامعة هارفرد ، عما كانت عليه جميع المساعدات الرسمية والبنوك ، فقــال : « ان تثبيت اقــدام عبد الناصر في السياسة الدولية سيكلف المصريين موارد ثمينة من الافضل استثمارها في اشياء اخرى . »

والمسألة هي ان المفتــاح الشعبــي في بنــاء قوة الجمهورية العربية المتحدة قد بدأ يتحقق وكانت هذه بالفعل وجهة نظرنا .. مع انني لم افكر في ان انقلابا سيعد ضد عبد الناصر ، ولكنه بدا معقــولا ان اكثر اصدقائه المقربين اليــه سيجرونه الى طريقــة سوكارنو ، على حد قول رئيس تحرير جريدة النيويورك تايمز ، سالزبرجر .

وعلمت ان نفس الاصدقاء ، والذيــن لا يشك في اخلاصهم

لعبد الناصر ، كانوا يناقشون الطريقة الاندونيسية وان فيهم من سيجرؤ على التحدث عنها امام عبد الناصر .

٣ ـ كان اهتمام ضباط عبد الناصر يتدنى رويدا رويدا عما يفكر بقية العرب في حكمهم ، وليس معنى هذا ان عبد الناصر يجب ان يدير ظهره للعرب ويتخلى عنهم ، فمساندته لهم امر ضروري وحيوي جدا. بعد ايام قليلة من نكسة حزيران، وقبل ان اطير الى القاهرة سألت احد اتباع عبد الناصر قائلا : « لماذا يجب على عبد الناصر ان يظهر كالنسر لشعب خاسر ؟ » واستطاع ان يجيب فقط : « آمل ان نعرف ذلك » .

ولكن هذا كان مهما لعبد الناصر ، وعندما بدأ السعوديون والاردنيون ينحون عليه باللائمة لعدم اهتمامه بتصاعد الغارات الاسرائيلية على سوريا والاردن ، عندئذ فقط تخلى عن الامور الاقتصادية ليشغل نفسه بالرد على الهجمات .. فوصفته حكومة الاردن بالجبن واظن ان هذا ما دفعه الى طلب انسحاب البوليس الدولي المرابط عند مضائق تيران .

* * *

يقول البروفسور لاكير : « يجب ان يعلم عبد الناصر والسوريون ان عقد المعاهدات انطلاقا من وضع خاطىء ، هو سياسة خطرة » . وافتكر ان هذا ما لم يعرفه بالضبط لا السوريون ولا عبد الناصر .

٤ ـ واخيرا كان هناك عامل سوريا . ففي ٧ نيسان وبينما كانت الطائرات السورية تحلق فوق الارض المنتزعة السلاح ،

وجدت عـددا مـن الجرافات فقصفته وقتلت عـددا كبيرا من المزارعين . ومـا ان انتهت الغـارة حتى كانت طـائرات الميراج الاسرائيلية تحلق فـوق دمشق وتسقط ستة مـن طائرات الميغ السورية على مشارف دمشق . وطيلة الاسابيع التـي تلت هذا الحادث اخذ راديـو سوريا يدعـو الى الحرب مما جعل كل من يعرف السوريين جيدا، يظن بان هؤلاء يستعدون لمهاجمة اسرائيل .. وهذا ما جعل الاسرائيليين يقفون ، تجاه الرأي العالمي ، انهم في وضع الدفاع عن النفس .

* * *

فكر الروس والمصريون ، ظاهريا ، ان المعاهدة ستحد من غضب السوريين ولكن النتيجة جاءت عكس ما ظنوا .. واتضح كليا انهم سيبدأون الهجوم هم وليس عبد الناصر ..

ومع اني لم اكن على اتصال مع السوريين ، الا ان اصدقائي المصريين ، الذين قابلوا الزعماء السوريين اثناء فترة الاضطرابات هذه ، اكدوا لي بان السوريين يريـدون الحرب فعلا ، وانهـم واثقون من ربحها ـ بمساعدة المصريين طبعـا . وفي الوقت ذاته اختلفت مع الكتاب الذين اكدوا ان المصريين انفسهم في وضع قوي يسمح لهم بالتغلب على اسرائيل .. حتى ان عبد الناصر اخبرني بنفسه عن حوار مع المارشال عامر ، وباسبوع واحد فقط قبل بدء الحرب . تيقنت ان الزعيم المصري كان يشك في الفوز الكامل ويأمل الآخرون ان ينال خمسين بالمئة فقط من الغلبة .. مع اننا استأنا جدا من خطابه الذي القـاه في ٢٩ ايار ١٩٦٧ واكد فيه : « بامكاننا ان نناقش قضيـة فلسطين بكاملهـا .. سوف نقرر الوقت والمكان بانفسنا و لاندعهم هم ـ اي الاسرائيليون ـ يقررون ذلك . »

سمعت التصريح نفسه من رئيس وزراء اسرائيل ليفي اشكول في ٢ ايار من العام نفسه . وعندما غادرت القاهرة الى لندن ، في نفس الوقت ، اخبرت اصدقائي المصريين باني سأراهن على آخر دولار في جيبي وأؤكد ان عبد الناصر ترك نفسه ينساق الى بيرل هاربر جديدة ، مع ان رحلة زكريا محي الدين الى واشنطن كادت تتم وان اسرائيل اكدت لجونسون انها لن تهاجم بانتظار نتائج مباحثات الاثنين في نيويورك . وكما قلت كان حظ عبد الناصر بالفوز خمسون بالمئة .. ومع ذلك خسر المعركة (١) .

ـ انتهى ـ

(١) نسي مايلز كوبلند ـ او تناسى ـ ان اسرائيل هي التي بدأت الهجوم الفعلي ولم تكن حسنة النية كعادتها . (المترجم) .

فہرست الموضوعات

الموضوع :	صفحة